وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

حالات سرية

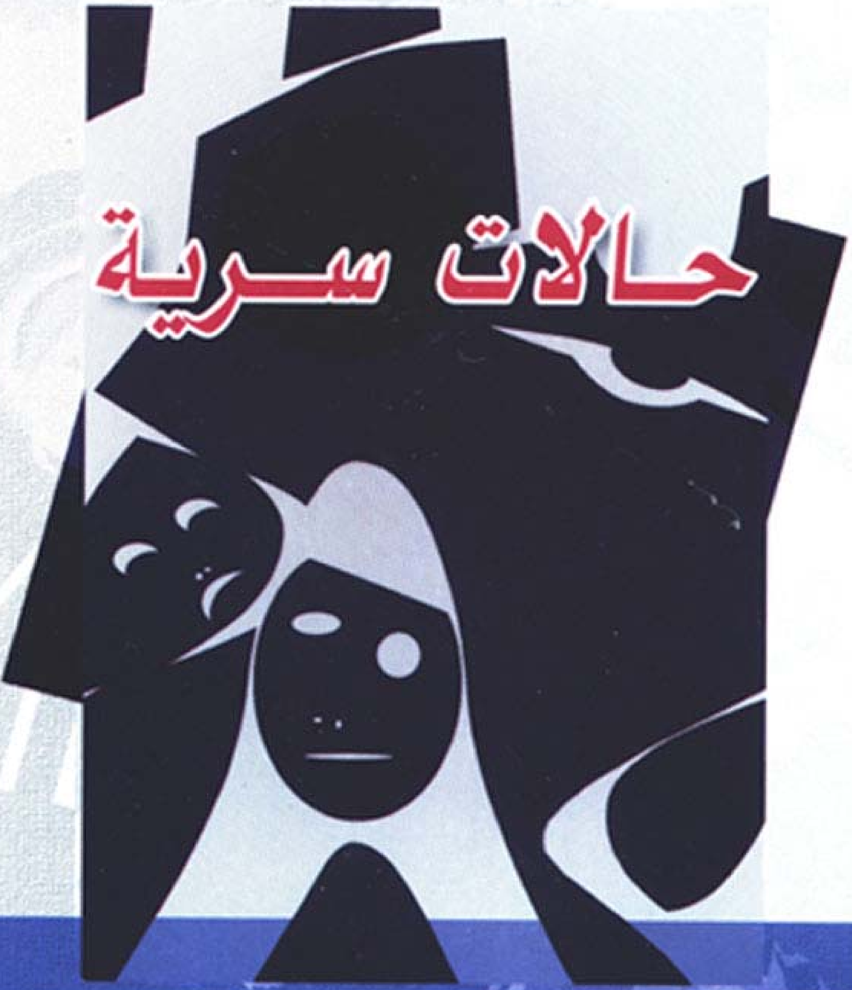

د. محمد جمال طحان

قصص قصيرة ١٥

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story

الدكتور محمد جمال طحّان

حالات سريّة

قصص قصيرة

حالات سرية

الدكتور محمد جمال طحان

قصص قصيرة

وزارة الثقافة

الهيئة العامة السورية للكتاب 2008

السلسة : رقم 15

كل يوم

توقظني زوجتي في الصباح :

ــ صارت الساعة التاسعة .

ــ أرجوك .. أمهليني دقيقة .. جهزي الفطور ثم عودي لإيقاظي .

أضع وسادة إضافية تحت رأسي .. أسنده إلى ظهر السرير .. وأحاول أن أهمّ بالنهوض . أفكر فيما يجب عليّ اليوم :

_ كثيرة هي الأشياء التي ينبغي القيام بها ،كثيرة وصعبة ، سأشتري خبزاً وطعاماً وفواكه . وأقف في طابور فاتورة الهاتف الذي لا يكف عن الرنين. سأذهب إلى العمل ، وحين أشرد لحظة واحدة عن الأوراق المكدسة أمامي ،سينبهني الأستاذ مخلص إلى أهمية سرعة تسيير شؤون المواطنين. فأدفن رأسي بين الأوراق وأنا أسمع نميمة الأصحاب على الغائب منهم.وسأعود منهكاً .

يتعبني التفكير في الأشياء التي ينبغي إصلاحها في البيت ... الغسالة.. الحنفية.. المسجل .. السخّان .. أف .. كثيرة هي الأعمال.. كثيرة وصعبة .

تهّز زوجتي السرير :

ـ انتهت الدقيقة .. والفطور جاهز .. هيّا أمامَك عمل كثير . ثم تصفعني بصوتها الناعم وهي تخرج :

ـ لا تنسَ ستزورنا أمي هذا المساء ، حاول أن تكون لطيفاً معها.

إذاً عليّ أن أصغي اليوم إلى ما تعلَّمته حماتي من دروس الأخلاق الجديدة منذ زيارتها الأخيرة لنا. وبالطبع ، لا يمكن أن أتحرّك من مقعدي إلاّ بعد أن تنتهي من جميع حكاياتها وأنا أهز رأسي مؤكّداً على صحّة ما تقوله ، وإذا شرد ذهني لحظة واحدة ولم أجبها بنعم ، عندما تنتهي من جملة وتصل إلى لازمتها : أليس كذلك .. ؟

حينذاك سأتلّقى من زوجتي نظرة لوم صارمة تومىء لي من خلالها وهي مقطّبة الحاجبين ، بضرورة أن أجيب :

ـ نعم يا حماتي . لا شكّ في ذلك .

سألتقي في الطريق بأناس كثيرين وأضطر للسلام حتى على الذين لا أحبّهم. ولا بد أن أقرن السلام بابتسامة مقهورة وأنا أكظم غيظي. وحين أصل إلى كشك صطوف سيضجرني بالحديث عن همومه،ويجلدني نصف ساعة بكلام فارغ قبل أن أدلف إلى الحارة حاملاً جريدتي من عنده .

أفتح الصحيفة على الصفحة الأخيرة ثم أقلبّها باحثاً عن الصفحة الثقافية فلا أجدها .. أهمّ بأن أتفل فأتذكّر أوامر

غريب أمر السعال معي ، إنه يبقى متواصلاً حتى أصلَ إلى مدخل البناية فيفاجئني .. ويختفي . حتّى السعال يتضامن مع العالم لقهري .

كثيرة هي الأشياء التي ينبغي احتمالها .. كثيرة وصعبة . في السادسة لدي موعد مع طبيب الأسنان الذي كثيراً ما يذكرّني بوظائف الحساب عندما كنت في الصف الخامس .

أما عبد الوهاب المحامي فقد أخبرني بضرورة حضوري إلى مكتبه في الثامنة. دائماً يطلب إليّ الحضور لأمر هام ، وفي كل مرة أذهب إليه

يقول لي : لقد تأجّلت الجلسة إلى الشهر القادم .

ولست أدري لماذا لا يقول لي هذه الجملة على الهاتف ويريحني من عناء المشوار.

نعم .. نسيت.. يجب أن أحلق لحيتي حتى لا تمطرني زوجتي بالأحاديث النبوية والأمثال العربية التي تدعو إلى الاهتمام بالمظهر ، وخاصة أمام الزوجة. وهي في الواقع تريد أن تراني شاباً أنيقاً حين تقارنني بأزواج أخواتها .

يعود الصوت المنبّه :

ــ حتى الآن لم تخرج من السرير .. قم

ــ دقيقة .. دقيقة ..

ــ منذ ساعة وأنت تقول : دقيقة .. صار ألف دقيقة وقد برد الشاي ولن أعود إلى تسخينه .أنت حر .

ــ آه .. حر .. ومن أين تأتي الحرية وأمامي تلال من الأعمال والواجبات . آه .. كثيرة هي الأشياء التي عليّ القيام بها .. كثيرة هي الأعمال ..كثيرة وصعبة .. ولكنّ أصعبها .. أن أنهض الآن من فراشي .

تداعيات يوم في ((مقهى الموعد))

في الطابق الثاني من مقهى الموعد أخلع معطفي ، بعد أن شعرتُ بحرارة الطقس .

كنت ومحمود وحيدَين .. هو غارق في صمته ، وأنا أراقب الشارع . مرّت امرأة تصفع ابنها الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره ، ولم تصل إلى سمعي تمتمات الشتائم التي تنهال عليه بها ، فهاجرت إلى طفولتي كي أخمّن ما الذي يتعلّمه الطفل من أمه التي تبدو عليها مظاهر الغنى والتحرر... لا شك أنّها استغرقت ساعتين في تجهيز نفسها للخروج بهذا المظهر .

أستنشقُ نسمة هواء لطيفة تداهمني عبر النافذة الموارَبة .. كأنني أشمّ رائح عطر أعرفها .. تنقلني الرائحة إلى عشر سنين خلت . أذكر تماماً تلك الرائحة.. استنشقتها مرّتين : مرّة عندما لمحت امرأة تخرج خلسة من بيت جاري الأعزب.. ومرّة عندما صافحتني نرجس إثر أمسيتها الشعرية .. اقتربت مني .. مدّت يدها وهي تقول :ــ لقد كنتَ قاسياً في نقدك .

رائحة عطرها ساهمت مع رموشها الراجفة في انسياب الخدر إلى أعصابي. لم يكن سهلاً أن أتمالك نفسي وأستجمع قواي لأقول لها وأنا أتأوّه: ولكنّني أحبّ الحقيقة أكثر ..

شعرت بفظاظتي عندما سمحتُ لنفسي بتلك الإجابة ، ولكنني لم أكن قادراً على السماح لعقلي بالتراجع في تلك اللحظة ، مما أفقدني عمق معاناة الأسى الذي يرتسم على وجهها . وضعت يدها الأخرى فوق يدي .. وشدّتها. حينذاك أدركتُ أنّ يدي ما تزال في يدها .. لم أعد أقوى على الصمود فهتف شيء ما في داخلي هامساً :

ـــ ولكنّك رقيقة المشاعر .

انزلقت يدي من بين يديها ، فهمّت كي تسنّدني .. قلت لها :

ـــ ولو آنسة نرجس ، نحن نسند العالم ثم نحتجّ عليه .. وضحكنا معاً .

الآن فقط أشعر بالحاجة إلى دفء يديها .. يداي تتكلّمان على حروف بداية قصيدة أكتبها .. أحسّ بالحروف نافرة وأقرؤها بأصابعي :بولينا "حبّةُ لوز تتكسّر فوق الكرسيّ ". . وأتذكّر بولينا . .

آه بولينا .. في بيروت التقيتها.. وحين تداهمني صورتها لا أستطيع أن أتخيّلها سوى ورقة رقيقة من البنفسج ... لها وجه ملاك في ربيع العمر، ولكنّ رأسها مليء بأفكار خريفيّة . حزينة دائماً . . ولكنّني لم أرها يوماً تبكي ..

أنظر إلى كأس الماء أمامي.. أرى قطرات ندىً على شفة الكأس.. تغيب الكأس ويظهر خدّا بولينا وعلى صفحتيهما دمعتان .

أتساءل وأنا أرتجفُ من البرد : كيف لا يذوب العالم من حرارة دموع البشر ؟ ! ..

ينقر محمود على الطاولة .. ألتفتُ إليه :

ـ إيه .. أخي أبو حميد .. هل تظنّ أنّ أدباء مقهى الموعد أقلّ شأناً من روّاد مقهى القصر ؟ ..

أندهشُ لسؤاله .. أنظر في عينيه وأنا أحاول أن أقرأ ما كان يفكّر فيه .. يأخذ رشفة من فنجان القهوة ويتابع :

ـ أنت قلّما تجلس في الموعد .. وأحياناً أراك في القصر ، وبالرّغم من وجودنا وحيدَين في عراء الصّالة ، يقترب منّي هامساً :

ـ هنا ..وهناك ..تجد مزاودين ومدّعين ومتفلسفين .. هنا وهناك

يوجد أدباء (أبو وردة) وهم قلائل .. والباقي .. (يقترب مني أكثر..) يحملون قصائد (أم زبلة) ويتفشخرون بها .. (يربت على ساقي بلطف وهو يقول) وليس كل ما يلمع ذهباً .. أليس كذلك ؟. أهزّ رأسي .. يعاود تقريب رأسه من أذني :

ـ أتعرف أنّ مخلص يختلط بالأدباء ليكتب عنهم التقارير .. ذلك الحقير.. أنا لا أخاف منه ولا من تقاريره .

يعدّل محمود جلسته .. يتوازن .. ويغرق في صمت جليل .. ثم يندفع شلاّلاً من القلق و الاضطراب والتوجّس .. يلتفت مذعوراً إلى اليمين وإلى الشمال .. ثم يهمس لي :

ـ ليس هناك أحد يسمعنا .. أليس كذلك ؟ ! ..

ثلاثة أيام في حياة مَي

اليوم الأول

لاحظتْ تشقّق الجدار الأمامي من قوّة الأصوات الصاخبة التي تصدر عن الجيران.. أسندتْ ظهرها إلى جدار الغرفة.. سدّت أذنيها بكفّيها . الأصوات المزعجة ماتزال تدوّي في رأسها . حين ذهبت إلى الشرطة .. أكّدوا لها أن الجيران هجروا البيت منذ سنوات هرباً من ضجيجها .

الشرطة لايقدّرون خطورة الموقف.

عندما طلبتْ إليهم منحها ترخيص مسدّس للدفاع عن نفسها، سخروا منها قائلين: ألا تريدينه بمواصفات محدّدة ؟

قالت : بلى .. أريده مسدّساً كاتماً للصوت.

عندما لم يستجيبوا إلى طلبها .. اتّجهت إلى نادي الصحفيين .. تفقّدت المكان بدقّة .. لم تجد خيري.. سألت عنه، قال لها النادل: لم يأتِ منذ يومين. دارت قلقها بالجلوس في ركنها الخاص.. وضعت حقيبتها حاجزاً بينها وبين الآخرين، وبدأ تكتب، كعادتها.

لم يجرؤ أحد يوماً على سؤالها ماذا تكتب.. كلنا نعلم أنها عصبيّة المزاج.

صحيح أنها لاتحدّثنا .. وبالكاد تسلّم على بعضنا بأطراف شفتيها حين تشاء..

لكنّنا، مع ذلك، نقلق عليها حين تغيب، ونشعر بالفراغ.

كان اهتمامنا بها شديداً، لذلك حرصنا على أن نوصل لخيري سؤالها عنه .. وكذلك فعل زملاؤه في مكان العمل: جاءت مي وسألت عنك ثلاث مرّات.. والقلق بادٍ عليها .

في اليوم الثاني:

بكامل أناقتها دلفت إلى النادي .. وقف خيري بانتظار تحيّتها .. لم تلتفت إليه. وضعت كومةً من صحيفة (الدليل) على مرأى من الجميع. تجرّأ خيري ومدّ يده لالتقاطها .. اتّضح أنها نسخ عديدة لعدد واحد .. قلّبنا صفحاتها .. وجدنا إعلاناً مؤطَّراً بأحمر الشفاه، وتحت عنوان: مطلوب شريك، ورد فيه: فتاة جميلة موسرة .. البيت مؤمَّن .. تحتاج إلى شريك.. رجل.. عاطل عن العمل .. مهذَّب .. مثقَّف .. يحترم المرأة .. قليل الكلام .. يستطيع أن يُسكت الجيران .. ويدافع عنها من دون ضجيج.

تحمّس خيري بفضل تشجيعنا واقترب من مي بحذر :

– مرحباً .. أنا رجل عاطل عن العمل.. مهذّب .. مثقّف .. أحترم المرأة .. لاأدخّن .. بلا منزل .. ووحيد .. هل توافقين أن نتعايش – سلميّاً – في منزلك؟

وحدث ماتوقّعناه .. انهالت عليه بالشتائم بصوتٍ عالٍ لفت انتباه روّاد النادي جميعاً. انسحب خيري بصمت، وغادر المكان بهدوء.

في اليوم الثالث :

دخلت مي النادي متجهّمة .. لم تسلّم على أحد .. اتّجهت إلى ركنها .. وضعت حقيبتها حاجزاً وبدأت تكتب . بعد ساعات، وقفت حاملة سيكارتها .. تجاوزت كل طاولات المدخّنين حتى وصلت إلى طاولتنا .. وبلهجة مهذّبة سألت خيري:

– هل يمكنك التفضّل بإشعال سيكارتي ؟!..

* * *

فشّة خلق

يوم ولدت شدّت أمي عليّ القماط فتحمّلت العرف الاجتماعي..

(قولوا عني : مزوق) .

بعد ذلك جرّبت الأدب فأُورثت الفقر .. جرّبت السياسة فتخوزقت سنة في قبو معتم نتيجة طيش الشباب، وما زلت أعاني من نتائج حشر أنفي فيما لايعنيني، بحسب ما قاله لي المحقق منذ أسبوع .

أتجرجر من الأمن السياسي إلى الأمن العسكري إلى الأمن الجنائي إلى الأمن الثقافي بفضل أولاد الحلال ذوي الخطوط الجيدة والفراغ الواسع ، ومنهم الروائي الذي انتقدت روايته ذات يوم .

المهم ، تشنططت ما فيه الكفاية ، كما تقول أمي ، لذلك توكّلت على الله وأخذت بنصيحة أحد الأصدقاء وبدأت العمل محاسباً في إحدى مناشر الحجر، حيث لم يعد من طريق أمامي سواه ، بعد أن صدّت الثقافة موارد الرزق عنّي .

وهكذا انتقلت من عالم الأدب ونشره إلى عالم نشر الحجر وتسويقه .

في البداية ، لم يكن الاختلاف كبيراً بين العاملين في كلا الميدانين..

المؤامرات واسعة الانتشار ، وتصيّد العثرات أمراً لا بدّ منه . ولكنني وجدت وقع المآسي هنا ، أخفّ وطأة من الهفوات هناك ، فهؤلاء .. عمال ومهندسون ومتعهدون ، يعملون في مجال بناء الحجارة مما يكسبهم صلابة في الجسم وجلافة في الأخلاق ، مثل المهندس قصي .

وكنت ألاحظ بين الفينة والأخرى أديباً أو عالماً أو مدرّساً جامعياً يحتك في مجال البناء ، ممّا يلطّف جوّ التعامل في هذا المحيط .

ولم يكن الأمر طيّباً دائماً، بفضل أمثال (أبو حمّادة) .

بدا أبو حمّادة ودوداً يحب المرح ويأخذ العالم بروح الفكاهة . وكان كلّما أبصرني قادماً من بعيد ، يهرع نحوي مؤدّياً تحيته العسكرية، ويبقى كذلك حتى أصل إليه .. يصافحني بكلتا يديه معتذراً:

ـ الله يوفقك لا تؤاخذني يابيك .. معليش .. تحمّلونا شوي ..

أنا رجل فقير وأنتم بتحمّل حالكم أن تصبروا علينا حتى تُفرج .

ونادراً ما كان يطلب إليَّ الانتظار ويرسل أخاه كي يدبّر لي دفعة..

وكل بضعة دقائق ينظر في وجهي مطمْئناً : ـــ الدفعة جاهزة.. اليوم سنعطيكم دفعة. وبعد أكثر من نصف ساعة يعود أخوه تعلوه علائم البشر وقد ظهرت أسنانه واتّسع عرض فمه ..يناوله حزمة نقود.. يتلقّفها أبو حمّادة بسرعة .. يبلّ إبهامه الأيمن بلسانه ويعدّ ببطء شديد.. يدس في جيب بنطاله بضعة أوراق مالية ، ويعاود بلّ إبهامه ويعدّ من جديد .. يرفع بصره إليّ مبتسماً : ـــ تفضل.

يناولني كل خمسمائة ليرة بمفردها : ـــ واحد.. اثنان .. ثلاثة .. ثمانية.

ـــ أرأيت ! نحن عند الوعد .. قلت سأعطيك .. وأعطيتك ، والخميس القادم سأعطيك الرصيد ... كم هو الحساب ؟

ـــ مئتان وسبعة وستون ألف ليرة . يبدي تراجعاً مفاجئاً : بسيطة.. إن شاء الله سأكبّر لك الدفعة .. بس لا تقطعونا حتى ما يلتكع الحجّار .

وكثيراً ما كان يهجم عليّ كالصاعقة .. يقّبلني .. ويعتذر عن الدفع مؤجّلاً إيّاه إلى يوم الاثنين أو الثلاثاء .

فأبتسم وأنصرف محيّياً وأنا أردّد : ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل .

لأنني أعلم أنه لن يطأ الورشة في ذينك اليومين .

مرة .. أجلسني على مقدمة سيارته الفولفو البيضاء وجعلني أسند قدميّ إلى لوحة السيارة ذات اللون الأصفر .. ثم راح يشرح لي كيف أصبح من أصحاب المال : ــ إنني أعمل في أرشيف متحف الآثار منذ زمن طويل مكتفياً براتبي الضئيل ، ثم حدثت المعجزة : طلبت إليّ هيئة أجنبية أن ألقي محاضرات عن السياحة والآثار أمام عدد من الطلاب الأجانب مقابل مئة دولار للدرس الواحد .. واستمر ذلك عامين إلى أن جمعت خمسمائة ألف ليرة اشتريت بها هذه الأرض وبدأت بتعميرها.. والآن ــ بعد خمس سنوات ــ أصبحت أملك ثمانين مليون ليرة .. ولكنّها ياصديقي أرض .. لذلك أحاول تدبير تكلفة البناء بشقّ الأنفس .. وأستدين لدفع أجور البنّائين كي لا أبيع الطابق بسعر زهيد.

صمت أبو حمّادة شارداً باتّجاه حديقة الخالدية .. فتحسّرت عليه وأشفقت على الرجل الذي يحمل مصائب الدنيا بين جنبيه . وبحركة مباغتة أمسك ساعدي بكفّه ، فبدّت لي قوته التي لا يُنبىء بها قِصرُه..

قرّب رأسه مني وقال : ــ إنني أنتظر أربعة ملايين ليرة خلال شهر أو شهرين من السعودية وهي أرباح العام الماضي من تجارة الماشية .

ابتعد عنّي قليلاً .. رمقني بنظرة متفحّصة من رأسي إلى قدمي كمن يبحث فيَّ عن شيء ما .. ثم سألني : ــ لماذا لا تشتغل بالتجارة؟ دعني أسجّلْ لك عقداً بدفعة بسيطة .. أنصحك بالتجارة .. الأسعار ترتفع ، وبعد شهرين أو ثلاثة أبيع لك البيت وأعيد المبلغ مضاعفاً مع (حبّة مسك) فتحفظ لقمة العيش ولا تتسول على أرصفة الصحف والمجلات ، وتبتعد عن المؤامرات والمقالب التي قد تتبعها الشتائم وتبادل الاتهامات بين الأدباء .

بعد أن صوّر لي أبو حمّادة (البحر طحينة) بعت بيتي الوحيد الذي أقطنه ووقّعت عقداً معه لشراء بيت على مشارف حديقة الخالدية . وهكذا دفعت مئتي ألف ليرة عربون ، ودخلت عالم التجارة منتظراً بيع البيت ذي الملايين التسعة . على مدى ستة أشهر استمرت حفاوة (أبو حمّادة) بي ، وفي كل مرة ألتقيه يغرقني بمقدمات طويلة، وأسئلة عن الصحة والأحوال ألاحظ أن أجوبتها لا تعنيه ، ثم يلوي رقبته ويداعب ذقني بأصابعه وهو يقول بصوت منخفض مبحوح:

ــ الأوضاع تعبانة ياصاحبي .. ولكنها قريباً ستتحسن . وبلطف زائد يخرج ورقة من جيبه :

ــ عندي دفع ضروري للعمال ومواد البناء .. خمسين ألف تكفي.. ومبلغ السعودية تأخّر عليّ قليلاً.. الأمور محلولة،

البارحة وفي طريقي إلى البيت مررت بجمعية العاديات للسؤال عن كتاب تعليم المقهورين الذي كنت قد أهديتها إياه قبل سنوات خلت.

قال أمين المكتبة : ـ الكتاب مفقود .

ـ ولكن الجمعية تملك مكتبة ضخمة .. وقد أودعت فيها هذا الكتاب بنفسي . تغيّر لون أمين المكتبة وظهرت عليه علائم الغضب :

ـ كانت المكتبة تضم خمسين ألف عنوان ، ولم تعد اليوم تحوي سوى عشرات الكتب

ـ وأين ذهبت المكتبة إذاً ؟

ـ تبخّرت بفضل (أبو حمّادة) ... حين انتقلت الجمعية من مقرّها السابق فوجئنا بضياع الملفّات والكتب معاً . وليت الأمر اقتصر على ذلك .. لقد شوّه أبو حمّادة سمعة الجمعية .. كنّا نكلّفه بمرافقة السائحين لزيارة الأماكن الأثرية وبعض المصانع .. فيقتص سرّاً من السائحين عن كل شخص خمسة دولارات ، ويعطي عنوان الجمعية لأصحاب المصانع كي يرسلوا بعضاً من إنتاجهم .. وكم وصل الجمعية من العطورات والصابون والزعتر والزجاج باسم (أبو حمّادة أو

وهكذا تجمّعت ثروتُه التي يوهم نفسه أنها من عرق جبينه .. ولما انكشف أمرُهُ في الجمعية ، انتقل إلى مديرية البريد ليبدأ بتشكيل مصدر لمبنىً جديد . حين انتهى عبد الله من حديثه الغاضب ، تهاويت إلى أقرب كرسي قائلاً: ــ ضاع العربون .. وطارت المصاري ..

سألني : ــ ماذا تفضّلت ؟

لم أجبه .. قررت أن أعود أدراجي مرة أخرى إلى عالم الأدب ذي الدخل القليل ، بعد أن بدا لي أنه قليل الخسائر أيضاً .

وهل تحفظون السر ؟

هذه ليست قصة واقعية ، ولا صحّة لكل ما ورد فيها* وإنما هي حكاية لفّقتها كي لا أطق من القهر، فاعذروني .

---

* ملاحظة : كل تشابه للقصة مع الواقع يكون على سبيل الصدفة وحسب .

الحفلة

أجلس خلف الطاولة لأسجّل ما أحتاجه لحفلة رأس السنة . اليوم الخميس ولديّ وقت كاف للإعداد للحفلة . الساعة تشير الآن إلى العاشرة مساء .. أستطيع النوم في الواحدة تقريباً مما يجعلني قادراً على الاستيقاظ في السادسة صباحاً ، حيث أذهب إلى سوق الهال وأتبضّع ما أحتاجه من خضروات وفواكه ، أما اللحوم فسأوصي عليها من شهباء الشام ، ولا صعوبة في انتقاء المشروبات من حانوت جابر زايان فهو قريب من منـــزلي ..

أتناول ورقة وقلما لأكتب المشتريات فتمر يدي بقرب الشمعة التي قاربت على الانتهاء ... أتنبّه إلى جمال هذا الجو الشاعري الذي أحبّه ، فغرفة المكتبة أحبّ الغرف إليّ ، لأنها توحي بالحميميّة ، فهي غرفة صغيرة تغصّ بالكتب والمصنفات والأوراق المصطفّة بشكل يخيل للناظر إليها لأول وهلة أنها وضعت بشكل عشوائي .... ولكنّها في الحقيقة رُتّبت بما يخدم سهولة قيامي بالأعمال المترتبة عليّ. وعلى كل حال أنا شديد الاستمتاع بالجلوس هنا ، وفي هـــذا الضوء الخافت، لأرتّب لحفلتي غداً... آخذ رشفة من الشاي البارد وأنا أفكّر :

سحّارة من التفّاح الأصفر ، وأخرى من التفّاح الأحمر .
كرتونة من الموز الصومالي المنقّط ، وسحّارة كرمنتينا حلوة .
سحّارة من الأجاص الناضج ، وأخرى من المانكا المصريّة .

كما قد نحتاج إلى خمسة كيلو غرام من الليمون ، ومثلها من الفستق الحلبيّ والتخليطة المشكّلة من النوع الممتاز . ولن أنسى البرتقال الدمويّ .

آخذ رشفة من الشـــاي .. وأفكّر : ماذا أحتاج أيضاً ... ماذا أحــتاج؟..

نعم : خمسة كيلو غرام من الكستناء ... وماذا بعد ؟ ..

بندورة .. مخللات .. نخاعات .. بسطرمة .. هبرة نـــيـــة .. خواريف محشيـــّة .. كبب متنوعة كبّـــة نيئة .. محمّرات .. بن ... مياه غازيّـــة .. مبرومة بالفستق الحلبيّ والسمن العربـــيّ . سوار الســـت .. بقلاوة .. وغـــريبة .. ثمّ قالب الكاتو لرأس السنة من سبع طبقات من الشموع . نعم الشموع.. الشموع المشكلة ... كيف سنرتّب /1995/ شـــمـــعة .

شمعة ضخمة في الوسط نكتب عليها رقم ألف ..تسع شمعات متوســّطة نكتب على كلّ واحدة رقم مئة ..تسع شمعات صغيرة نكتب على كلّ واحدة رقم عشرة ..خــمس شمعات ناعمة ... ونحصل على المطلوب ..

تلدغ نهاية السيجارة يدي ... أرميها بالمنفضة .. أنفخ موضع الحرق الطفيف ، ثم أتابع : عبد الجواد يفضّل الويسكي ... أما فارس فيفضّل النبيذ البيتوتي .. والنساء ، حتماً ، يفضّلن الشمبانيا .. أمّا جمال فإنّه لا يستغني عن العرق ــ ملك المشروبات* ... كما أننا سنحتاج ــ بطبيعة الحال ــ إلى صندوق من البيرة لنغسل بها آثار (الكرّاتي) .

أمّا صديقي مهنّا الذي تقرحّت معدتُه من الأصدقاء والعرق فإنّه لن يتناول سوى (ويدينغ نايت).

أمّا مفاجآت الحفل فسأتركها سرّاً.. سيدخل المطرب الفارس الزئبقي (غنّوج المشنتف) ثمّ الراقصة الدلّوعة (

---

* حاشية : جمال تاب عن العرق وأصبح تابعاً للشيخ أحمد .. يشتري له حاجياته .. ويدافع عنه عندما يخطئ .. ويداري تصرفاته المشينة .. ويقبض الثمن .. ولكن ربّما ، بهذه المناسبة ، يخلع لحيته ويكفّر عن ذنوبه بالعرق ، تماما كما كفّر عن تعاطيه المسكرات بمرافقة الشيخ الذي اتضح لنا فيما بعد أن لحيته مزيفة وأنه لا يعرف أبجديات الصلاة وإنما اتخذ اللحية شهادة عمل ، كما صرّح لنا فيما بعد .

أفضلُ الساعاتِ وهمٌ

أفضلُ الأيّامِ .. وهمٌ

ثمّ وهمٌ من جديد

أفضلُ الأعوامِ ما يأتي

فلا تعرفُ رأسه من أرجله

أفضلُ الأعوامِ ما يأتيك

وأنت ثمل ..

أو وأنت ممدّد فوق الـــ...

أوه .. صحيح ، هناك أيضاً شيء يجب ألاّ أنساه .. أنحني على الطاولة لأدوّن، فتعلن الشمعة موتها.. ويحلّ الظلام .. أمد يدي لأكتشف عود الثقاب فتصطدم ببقايا الشاي البارد وتنسكب محتوياته على الورق،وأكتشف أنني أكاد أتجمّد من البرد ...

لقد ذهبت في الشهر الماضي إلى مكتب توزيع المازوت ، بكل براءة ، وسألته أن يسّجل لي دوراً لتعبئة البرميل ، وأنا أقول في نفسي: لن يأتي السوتير للتعبئة قبل أسبوع ، وحينذاك أكون قد دبّرت ألف ليرة...؟ ولكنّ موظف التوزيع قال لي : لا

ـ وهل هناك مشاكل في المازوت ؟

ـ لا، توجد مشكلة واحدة فقط ، المازوت ارتفع سعره منذ الشتاء الماضي ، صحّ النوم ...

وما زلت منذ ذلك الوقت أتـــدفّأ على سخّان الكهرباء الذي أطهو عليه الطعام .. الطعام .. أه .. أقصد الشاي الذي يكوّن غذائي الأساسي . وبطريقة غير مباشرة أطبّق القول الشائع (خبز وماء أكل العلماء) .. العلماء ؟ وكيف إذاً أجـــهل سبب غلاء الوقود ونحن من دول البترول ؟ كما أجهل سبب انقطاع التيار الكهربائي لأكثر من عشر ساعات في اليوم ، ونحن نوسّع القرى ونبني الصحراء ، ونقرض الكهرباء إلى جيراننا ؟

يطوّقني البرد أكثر فأكثر .. لم أعد أقوى على الارتجاف ، يبدو أن أعضائي أصبحت كتلة واحدة متجمّدة .... بهذا الوضع من البطالة والعتمة والجهل ، أحسد نفسي لأنّ هذا التجمّد سيضمن لي ـ على الأقل ـ ألاّ أفسد بعد حين ... فأنا أحمل برّادي في داخلي ولا أحتاج إلى الكهرباء ...

بصعوبة كبيرة أنهض من على الكرسي المهترئ ، ولا أدري كيف أصل إلى الفراش لأدفن رأسي تحت الغطاء وأنا أردّد مرتجفاً :

((يا لـــيـــالي البرد عودي

يا لـــيـــالـــي الكـــستناء

نحن من فقر تـــعوّدنـــا

على

لسع الشتاء))*

* مقطع من قصيدة للشاعر ممدوح السكّاف . بتصرّف

انعتاق

المشهد الأول :

بهدوء تام بدأ عبد المنعم يراقب عملية بتر ساقه وكأنّها تحدث لشخص آخر . قال في نفسه:ــ الحمد لله فما زلت قادراً على النسج.

منذ ثمانية أعوام دُعي إلى حفلة صيد على شاطئ وديع ، لكنّه اكتفى بمراقبة ألوان الأسماك من بعيد .. أذهلته المخلوقات الصغيرة وهي تداعب الماء وتتــزلق من بين الشِباك . ضحك في سرّه ثم ترك السرب وراح يغازل فراشة تغرس رأسها في عمق تويج وردة ربيعية .

هكذا بدأت الفكرة ..

في الزاوية / 87 / نسج ثوباً جميلاً بهر تجّار السوق الذين يحاولون تسويق بضائعهم الرديئة ، فأثار حسدهم وغضبهم .

لم يكن عبد المنعم يأبه لترويج بضاعته لأنّه انصرف كلّياً إلى الاهتمام بفنّه. تنقّل بين المدن واشتهر بأسلوبه في تعليم فن النسج لكل من يرغب في تلك الصنعة . وكان همّه الوحيد أن يفرش المدن كلّها بسجّاد نظيف .

هدأ تجّار النسيج عندما اطمأنوا إلى أنه لم يكن يطمح إلى اكتساح الأسواق بسجّاد يحمل علامة تجارية مستوردة تباع بسعر ينافس أسعارهم .

وزيادة في الاطمئنان ، وحرصاً على عدم تنقّله المستمر بين المحافظات،ملوؤا جيوب السيد (م) بالنقود ودفعوه كي يطعن عبد المنعم بسكيّن مسمومة في ساقه ، مما اضطره إلى بترها .

وبالرغم من التخدير الموضعي يحسّ بصرير المنشار على ساقه، لكنّه يتحمل الألم : الحمد الله.. مازلت قادراً على النسج .

المشهد الثاني :

في الزاوية /92 / أجرى السيد (م) وبوسائله الخاصة عملية فريدة من نوعها في جسد عبد المنعم.. قطع له سبابّة وإبهام اليد اليمنى وفقأ العين اليسرى .

قال عبد المنعم : الحمد الله فما زلت قادراً على تعليم النسج .

لم يكن في حلب سوى مجموعة صغيرة من النسّاجين يقدّرون موهبة عبد المنعم . اجتمعوا ذات ليلة وقرّروا أن يفتتحوا له مدرسة يديرها لتعليم النسيج . بعد فترة وجيزة غزت الأقمشة المتينة بألوانها الزاهية الأسواق وبدأ الكساد يجتاح المصنوعات التجارية الهشّه.

شيخ التجّار يكره الألوان الزاهية ،لذلك قرّر أن يقوم بحملة إعلانية تدعو الناس إلى الحفاظ على أناقتهم باقتناء الأقمشة التي تضم الخيوط السوداء والحمراء وتبتعد عن الألوان الخضراء والصفراء والبيضاء المشينه .

ولأن عبد المنعم لم يكن قادراً على مجابهة الإعلانات ،قرّر شيئاً غريباً أيضاً: لصق جفني عينه اليسرى وقطع خنصر وبنصر يدِه اليمنى وجعل يتجوّل كلّ صباح في أسواق المدينة ،مما أرهق السيد (م) الذي أشاع بين التجار أن عبد المنعم يتعامل مع الشياطين : انظروا إليه .. إنه يغمز بعينه اليسرى، ويُشهر إصبعه الوسطى باتّجاهكم .

المشهد الثالث :

في الزاوية / 94 / اجتمع السيد (م) وشيخ التجار والناطور تحت ساعة باب الفرج وقررّوا :

– لا بد أن نفعل شيئاً لمواجهته . قال شيخ التجار : ــ لا بد من نفيه. لكن السيد (م) كان أكثر حزماً: لابُدّ أن يُقتل .أمّا الناطور،وبعد تفكير طويل،قال: ــ سنجري له عملية .

ومن دمشق إلى حلب ربطوه بعربة تجرّها الكلاب .. مرت العربة بشارع بارون باتّجاه المسلخ القديم .. وهناك مدّدوه على صفيحة حديد ساخنة وبدؤوا باستئصال الذاكرة النسيجية .. الألوان الزاهية.. سحبوا منه الأدرنالين وتركوه مثقلاً بدمه بعد أن خاطوا له رأسه كيفما اتفّق ،وباستعجالٍ شديد.. لكنّ الذي أذهل الحاضرين أن ابتسامة عبد المنعم الساخرة لم تفارق شفتيه.

توقّف الطّبال عن القرع .... ارتجفت أيدي المصفّقين للعملية .. ووجموا.

المشهد الرابع :

وحده الطفل الذي وقف بجانب رأس عبد المنعم رأى جموع المهرة الذين تخرجوا من مدرسته قادمين في ثلاثة أفواج ، يحمل الفوج الأول شباكاً متينة ، ويحمل الفوج الثاني أعضاء عبد المنعم المبتورة ، وفي الفوج الثالث ظهر أطفال يجرّون كثيراً من الخيوط الزاهية .

المشهد الخامس :

في صباح الزاوية / 95 / لاحظ الناس اختفاء بقايا عبد المنعم من المسلخ.

في منتصف الظهيرة ، جمع شيخ التجّار النّاس في ساحة المدينة . وقف على منصّة عالية وإلى جانبه السيد (م) والناطور والسيّاف .

صرخ منادي السوق :

ــ أين عبد المنعم .. ؟

تعالت الأصوات من بين الجموع :

ــ هنا ...

صرخ المنادي ثانية :

ــ من عبد المنعم ..؟

صاح بعض الشباب والأطفال دفعة واحدة :

ــ أنا ....

لم يدم الاجتماع طويلاً .. هبّت ريح عاتية.. اقتلعت المنصّة من مكانها.. أبرقت السماء وأرعدت.. وقبل أن يأتي المساء ، كانت الأمطار الغزيرة قد غسلت ساحة المدينة.. وظهرت الخيوط الزاهية من جديد ، ممتدة من محطة بغداد مارّة بشارع بارون حتى الطرف الثاني من المدينة.

ضفّة واحدة ومبدعان

إنني واحد من الَّـذين يفضّلون الاعتزال في صومعة الذات ، رغم أنني أحب الناس ، ولكنّني لست اجتماعياً بما

أخرج إلى الشارع في أضيق الحدود الممكنة ، ثم أعود مسرعاً إلى مملكتي الضيّقة لأستمتع بتحرّكات أسرتي الصغيرة وأعاني شغب أطفالي الجميل.

العالم الذي أحبُّــه ، هو العالم الرسميّ الذي أتعرّفه من الكتب والمجلاّت ووسائل الإعلام التي يمكن أن تتوافر في منــزلي ، ومن الزّائرين الصّامتين . هكذا أكتفي .

وبالرغم من ذلك فإن صطوف الذي يعدّ نفسه قاصاً هزلياً من الطراز المتميّز ، استطاع أن يخدعني بتذلّله مما دفعني للشفقة عليه فأقرضته خمسين ألف ليرة ، استطاع ، بكل صفاقة ، أن يغيبّها في بطنه لتصير في خبر كان ، ومارس ، فعلياً، مضمون قصتّه " الضحك على الذقون " ..

أمّا حسين الذي يدّعي أنه معجب بقصصي ، ويلحّ عليّ كي أدفع له بها كي يقرأها فور خروجها من (بيت النار) فقد تمكّن هو الآخر من الفوز بجائزة سعاد الصباح بعد أن سطا على مجموعة قصص منّي ، ومن أدباء أوحى لهم أيضاً بأنه معجب بنتاجاتهم إلى حد الموت..

وبين صطوف وحسين وجدتُ نفسي مفجوعاً بالذين يستدرجون طيبتي ويزجّون بي في مستنقع المؤامرات التي

ولكن كيف يمكن أن أتخلّص من القلق وأنا مضطرّ كل يوم إلى تحمّل أمثال صطوف وحسين اللذين يدّعيان أنهما قاصان؟! ..

نعم كيف لم أنتبه إلى صفاتهما الكثيرة المشتركة .. لو أنني انتبهت إلى ذلك كنت وفرّت على نفسي الوقوع في حبائل واحد منهما على الأقل .. كلاهما اسم على غير مسمّى..كلاهما كثير الحج إلى منزلي.. وطويل المكوث ،مما يجعلهما ثقيلي الظل . ودائماً يختاران أوقاتاً غير مناسبة للزيارة .. إما في آخر الليل .. أو وقت الغداء ... أو في موعد القيلولة .

حين يُقرع الباب في هذه الأوقات ، تتوقّع زوجي أحدهما .. تهرع إلى الباب .. تنظر من العدسة المثّبّتة في وسطه .. تعود محبطة وهي تتمتم بفتور : جاء الحاج صطوف حسين...

وبالفعل إن ملاحظة زوجي دقيقة ، فهما متشابهان : مصطفى قصير القامة مربوع ، وكذلك حسين.. الصلعة تتوسط رأس كلّ منهما .. كلٌّ منهما مطرود من الابتدائية ويدّعي أنه يريد التعلّم من مدرسة الحياة .. وهذا يعني أن لغتهما العربية سقيمة مما يزيد من ثقلهما على الآخرين . يدوران على الأدباء .. هذا يصلح لهما جملة ، وذاك يقوّم أخرى ، وثالث يضيف عبارة .. وهكذا يحمل كلٌّ منهما بذور فكرة قصة ليقوم بكتابتها الآخرون. وللأسف فقد انطلت عليّ هذه الحيلة، ووقعت في فخاخهما غير مرّة ..

هما أيضاً كثيرا النميمة والادّعاء: كلّ أسبوع يحدّثني صطوف، مرة أو مرتين، عن علاقته بزوج مراد الأجنبية ... يقول :

– / هي امرأة روسية .. وكما تعلم فإن الروسيات يعطينك كل شيء مقابل لفافة تبغ .. ونظراً لانشغال مراد ، وجهل زوجه باللغة العربية ، لذلك تطوّعت لتعليم ابنها قواعد الصف الثالث الابتدائي.. ويا أبو حميد.. (يتابع صطوف) شفت منها شوفات عجب .. كل مرة أذهب فيها لإعطاء درس أراها (على آخر طرز) بكامل زينتها .. حيناً تلبس كنــزة مكشوفة الصدر تبرز نهديها وهي تنحني لتقدّم لي كأس الوسكي .. وحيناً تمر من أمامي وقد علّقت طرف ثوبها بالسروال الداخلي مما يظهر

التفت صطوف وسألني : / زوجها يعرف .. وأنا أولى من فائز أليس كذلك ؟ / وحين لا أجيبه يتابع الحديث : / جلستْ قربي في بنطالها القصير......

وهكذا يتابع حديثه بصورة فضائحية ...

وبالرغم من أنني أحب (مراد) وأخجل من بعض ألفاظ صطوف، كنت أسمح بمتابعة حديث يحّرك غرائزي مما يجعلني أتلذّذ بما يقول، إلى أن انتبهت إلى نفسي ذات مرة:- صحيح أنها أجنبية.. ولكنها أنثى.. وزوجة صديق .

ومنذ ذلك الوقت بدأت بالتهرب من صطوف، مما اضطرّني إلى الكذب ، ففي كلّ مرّة يحاول زيارتي أعلّم ابنتي الصغيرة أن تقول له : ــ بابا ليس هنا ..

ومرة قالت له: ــ قال بابا غير موجود؟!.. مما أحدث قطيعة بيننا، وسألت الله أن يعوّضني عن الخمسين ألف،خاصة

وكذلك الشأن في قصص حسين التي تنبي عناوينها عن طبيعة حياة كاتبها ،وتفصح عن طريقة تفكيره... فمن عناوينه(ابنة حرام – الشحاد – ضحكات إبليس – بواسير ابن صطوف..) ولا أستطيع التفكير بالقرف الذي انتابني منه ومن قصته (الزفاف) التي يحكي فيها عن بطله (أبو ثقب) الذي يسمح للرجال بالنوم مع زوجته مقابل عدة ليرات .. وكيف أن بعضاً من تلاميذ المدرسة أرادوا أن يشبعوا شهواتهم بسعر الجملة .. فيجادلهم حول المبلغ مستشهداً (بالشرطي) الذي يأتي إليها كل يوم أكثر من مرة ويكتب الشعر فيها.. ثم يُسمعهم بعض الأبيات .. وبعد الاتفاق على السعر يشرح حسين تفاصيل ما يحدث بين التلميذ ومن يضاجع لنكتشف في النهاية أن من تمّ الفصال حولها هي (حمارة أبو ثقب) التي رفست التلميذ الأخير ، مما جعل رفاقه يطلقون عليه لقب (المزفوف) .

وحسين مثل صطوف، أيضاً له مغامرات جنسية، نصفها كذب، والنصف الباقي فيه قذف وبهتان. ومن ذلك حديثه عن

ولقد ادّعى ذات مرة أنها اعترفت لزوجه بأنها تحبه وتقبل به على (ضرّة) بالرغم من فقره وجهله معاً .. ولست أدري ربما تكون مسحورة بالصلعة ؟ ! ..

هذا هو حسين، وهذا هو صطوف، اللذان سرى عليهما قول زوجي بين الزملاء : الحاج مصطفى الحسين ، أو الحاج حسين الصطوف.

آه .. أتعبني التفكير فيهما .. وما زلت قلقاً : هل من بين من أعرفهم قد يكرر مأساتي معهما ؟ . هل أقفل باب البيت من الداخل وأرتاح من الارتياب بالناس ؟ ..كدت أغفو بين الحلم واليقظة لولا صوت سائق الحافلة يصيح :

ـ دائري جنوبي .. دائري جنوبي ... أصحّح جلستي وأنا أحسّ بقرقعة عظامي .. أنظر إلى الساعة : ـ أف .. انتصف النهار أيّها الرزين .. وحان الوقت كي تغوص في رداءات الحياة . استنهض همّتي بتثاقل شديد وأنا أتذكّر قول خليل حاوي :

((بيني وبين الباب أقلام ومحبرة ،
صدىً متأفّفٌ
كُوَمٌ من الورقِ العتيق .
همٌّ العبورِ،
وخطوةٌ أو خطوتان
إلى يقين الباب ، ثم إلى الطريق .))
أفتح الباب وأخرج .. أسمع صفقته .. أرفع كتفّي وأقلّص رقبتي وأنا أشعر بألمه ... لكنني أنسى حين أسمع صياح السائق: دائري.. دائري.. وأركض كي ألحق به .

كنّا أربعة في مطعم (النجمة) بحي (الميدان)، وقبل أن ينتصف الليل ، انتصفت سهرتنا، وفرغت جعبة أحمد من الكلام ، فالتفت إليّ كعربة تداهم طفلاً :

ــ لم نسمع صوتك بعد .

عبد الوهاب اقتصرت مساهمته على الإفصاح عن رغبته باعتزال الناس ليعيش في منطقة نائية تبعد عن القيل والقال ، وتريح معدته من مشكلات مدينة تمدّ رأسها كقرية مدهوشة فتكتشف أنها تطلّ على العصر من شرفة القمامة .

حسان كان يختلس النظر إلى المرآة حيناً ، وإلى أحمد حيناً أخر ، متحسّراً على تدافع الأيام السريع ، بالرغم من أنه لم يبلغ الأربعين . وكانت الخيبة تطلّ من ملامحه مفصحة عن تذكرّ بقايا عزيز بعيد ، وترتسم على شفتيه جملة متعثّرة تريد أن تباشــر البوح بأنه ربما يوجد في المكان الخطأ، أو .. ربما كان التوقيت هو السبب .

كنت وعبد الوهاب نعلم بأنه على علاقة بزوجة أحمد ــ جارته، ولاشك أنه يطمع باستبعاد أحمد والاستعاضة عنه بزوجته .. ولأن المطعم مكان غير مناسب ،فإنه يفضّل أن

أما أنا فقد كنت أعدّ هزائمي بصمت .. وحين داهمني أحمد برغبته في أن أشاطره جريمة خرق السكون ، بدا لي للوهلة الأولى أن ثرثرته هي سبب وجومنا ، ثم اكتشفت أنني لا أتقن فعل المجاملة ... إلى درجة جعلت اللغة تتسرّب من ذاكرتي ، وتتلاشى الحروف في الهواء .

ما الذي سأقوله يا أحمد ؟

هل تريد أن أفسد عليك السهرة فأحدّثك عن فجائعنا المتواصلة التي رمت بنا إلى مستنقعات استجداء ما يفرغ منه الآخرون ، أم أحدّثك عن فحولتنا الغائبة عن كل الأمكنة ، باستثناء السرير؟

ذلك المكان الذي يبدو أنك تخليت عنه لحسان الذي لا يتوانى عن لعق حذاء أيّ جيفة نتنة ، متخلّياً عن بيته لآخرين .. ومنشغلاً عن أبنائه الأربعة الذين لا يعرف كيف يعيشون .. وكيف يفكرون.. وإلى أي سنة دراسية وصل كلٌّ منهم .

ونحن ، قد نتمكّن من حماية بيوتنا ومصادر عيشنا ، بكل الالتواءات الممكنة، لكنّنا نعجز عن حماية أرواحنا من التعفّن الذي يتراكم فوق الصدور .

نشعر بغربة قاتلة ونحن نحاول أن نحلّ معضلات مشكلاتنا اليومية، التي قد يصيبنا تأمّلها بقرف عارم ، لأنها مشكلات تجاوزتها الكائنات الحيّة التي تُعدّ أدنى مرتبة من الإنسان .

وتستمر عذاباتنا في التجـــوّل أمام أعيننا من غير أن نجد حــــلاً جذرياً لها،لأننا غير قادرين على ممارسة إنسانيتنا في واقع يفرض علينا اضطهاداً لم يَخبره أجدادنا .

أما زلت تريد مني الكلام ؟

لقد تعلّمت ياصديقي من (دونكيشوت) ألاّ أحارب طواحين

الهواء، كي لا أبدّد قواي التي أحتاجها لإنقاذ انسجامي الداخلي ، وتعلّمت ــ على طريقة جبران ــ أن أصمت حين لا أجد موضوعاً يمسّ إنسانيتي في الصميم، كي لا أجترّ نفسي في دوّامة طواحين الكلام.

أحمد لم يستوعب غلياني الداخلي ، وظلّ يلحّ في السؤال .

ولكنّه أصيب بالذهول عندما انتصبت واقفاً.. ضغطت الكأس بيدي .. وحين انكسرت .. رسم الدّم على الطاولة أشكالاً هلامية تشبه أحمد. اقترب النادل منّي بحذر .. مسح الطاولة .. والتزم روّاد المطعم الصمت.

الممسوس

بالرغم من أنني انتظرته على مدى ثلاثة أيام مضت ، لم يأتِ ليهنّئني بالعيد، أو ليقدّم إليّ هدية الميلاد ، فأدركت أن بابا نويل لم يعد يطرق أبواب الفقراء ، وتحوّل عن غايته التي ابتدع طقوس الهدايا من أجلها .

في البدء قلقت عليه وظننت أنّ حدثاً جليلاً منعه من الحضور ، وتساءلت: هل غدا فقيراً مثلَنا ؟ هل أوقفته حواجزُ الحدود لأنه لا يحمل جنسيّة ما ؟ ..

كثرت الأسئلة وتزاحمت في رأســي الإجابات، ثم خطر لي أن أستنجد بالجهات المعنيّة لإصدار (إذاعة بحث) عن شيخٍ ملتحٍ يرتدي جبّة حمراء اللون ، يحمــل على ظهره كيســاً كبيراً ، وتعلو رأسَــه قلنسوةٌ تشبه أنف الفيل .

ولكنني توقّفت عن ذلك كلّه عندما لمحت بابا نويل يظهر على شاشة التلفاز...رفعت الصوت وأصغيت فإذا بالمذيعة تنقل أخباره وترصد تحرّكاته بين الفنادق الكبرى...وهكذا صرّح بابا نويل لوكالات الأنباء العالمية بأنه سيزور فنادق وملاهي الشيرتون والميريديان وبارون ...

وأنّه سيوزّع الهدايا الثمينة على الصغار والكبار.ولكنّ تلك الأنباء التي طمأنتني على أنه بخير ، أحزنتني حينما وضّحت أن رسم دخول الأطفال والكبار إلى تلك الأماكن لا يتجاوز عشرات الدولارات!!.

حينذاك تربّعت على الأرض وأنا أتأوّه : وتذكّرت عبارة القيصر المغدور:(حتى أنت يابروتس)!..

ولأنني أعلم أن بابا نويل رمز لكل الذين يرعون اليتامى ، عدت إلى التوهّم بأن واحداً من أولئك يطرق بابي . وحين فتحت فوجئت بأحد زملاء الدراسة الثانوية يسلّم عليّ . رحّبت به وأنا مذهول من رؤيته بعد عشرين عاماً من الانقطاع .

لم يكـــد يجلس حتى أمطرتُه بالأسئلـــة: أين كنت .. ما هي أخبـــارك.. ماذا درســـت ... ماذا تعمل ... ؟! .

فرمقني بنظرة لم أتفهّم معناها وقال : أريد أن أشرب شايـــاً . بدت كلماتُه كأنّها صفعةٌ مركّزة تتّجه إليّ .

كنت أفكّر ، وأنا أُعدّ الشاي ، بسرّ زيارته . بدا الرجل كئيباً وعلامات الفقر المدقع تنفر من ثيابه الرثّة .

شرب الشاي ومضى ... فأدركت أنّه ــ مثلي ــ يبحث عن بابا نويل . كنت حزيناً قبل زيارته ... فغدوت كئيباً ملولاً بعد مغادرته .

ولم ينقذْني من همّي إلاّ الشعر .

فتحت أقرب ديوان إليّ فتذكّرت أحد الشعراء يصوّر تجربته في إحدى القصائد العاميّة ، وحكايتها أنّ بحّاراً استقلّ زورقه الصغير وأوغل في عمق البحر .. وحين شارفت الشمس على المغيب راودته عن نفسه كأسٌ من الشاي ،فكسر مجدافيه ،وصنع منهما موقداً، واستضاف نفسه إلى وليمة شاي فاخرة، ثم استلقى بعد أن سلّم مركبه للتيار ...

شكراً لهذا الحبّ

حضر المساعد الفنّي محمّلاً بأوراقه .. جلس تحت مظلّة الشرفة كي يتّقي حرّ الشمس.. دوّن في أوراقه : الشرفة مخالفة لأحكام القانون لأنها تتجاوز الارتفاع المسموح به بمقدار أربعين سنتيمتراً، كما أن وضع مظلّة فوق المرآب أمر مخالف لأحكام القانون ...

قال لي وهو يرشف القهوة : هذه المظلة ضرورية لأنها تدفع حرّ الصيف وأمطار الشتاء ... تابع وهو يطفئ سيجارته : أرجو أن تعذرني ... إنني موظّف ولا أستطيع إلاّ تنفيذ اللوائح ... لاشك أنك تلتمس لي العذر فأنت مثقّف وأنا أقرأ المقالات التي تكتبها في
الجريدة ... وهي تعجبني .

بعد أيّام زارني رجل مهذّب ومزيّن بثياب متميّزة : هذا إنذار لإزالة المظلّة ... أنا آسف دكتور ... وما أنا إلاّ رسول .

في الأسبوع التالي : خمسة رجال مدجّجون بأدوات الخلع والكسر والاقتحام أيقظوني على أصوات الأنقاض وهي تتهاوى على شرفتي ...

ومن شبّاك جاري في الطابق العلوي، حيث تمّ اقتحام بيتي، كان المهندس – قائد الهدم – يتناول صينية الكاتو والكازوز من جاري .

واحدٌ من عناصر الهدم الذي أرسلته البلدية، وقف متسمّراً عندما صرخ به المهندس: لاتنزع الستائر الجانبية كي لانظهر على الجيران ...

ورشة العمل كانت تعمل بجدّ ونشاط ...

المختار الذي رافق كتيبة الاقتحام همس في أذني : لو ترضي جارك ... في البناية التي أسكن فيها ... استأذن أحد الجيران بإقامة سطح لمرآبه فوافقت ... الأمر ليس به ضرر علينا فلماذا نضرّ الآخرين .

بهدوء شديد يخفي وراءه غيظاً عارماً أجبته : سيدي المختار ... جاري يريد أن أبني سقفاً مسلّحاً بالحديد والأسمنت كي يبني غرفة هو أيضاً ... وهذا يعني أن يبني الذي فوقه غرفة... وهكذا تصبح المخالفة خطرة وتعرّض البناء للسقوط .

عدّل المختار جلسته وتمتم : حاول أن تتفق مع جارك .

المهندس الذي سمع بعض حديثنا قال : نحن لانهدم مخالفة إلا بناءً على شكوى .. لامصلحة لنا بأذيّة الناس ...

وكي لايُغمى عليّ من عملية إزالة المظلة بشكل عشوائي لايأبه لأيّ سور يتشقق أو مصباح يُكسر أو كرسيّ يتفتّت ...

استأذنت جبهة إنقاذ القانون البلدي كي أغادر ورجوتهم أن يتابعوا أعمالهم بالطريقة التي يرونها مناسبة : أعرف أن أشغالكم كثيرة .. ولديكم أعمال هدم أخرى ...

وأنا أغادر المبنى، لحق بي جاري الذي احتفى بكتيبة مجابهة الجريمة التي ارتكبتها... رسم على وجهه ملامح الأسى وهو يقول :

- صدّقني ياجاري أنا أحبك وأحترمك .. خاصة بعد المقابلة التلفزيونية التي بدوت فيها مثقّفاً مجيداً ... صدّقني أنا منزعج من هذا التخريب الذي حدث ... لقد قدّمت الشكوى لأنك لم تستأذن بشأن المظلة .

- ولكن الجيران هم الذين حثّوني على إقامتها .. وقد أكّدوا لي أنك رجل محترم تريد أن تنفع الآخرين بما لايضرّك ...

- كان عليك أن تسألني أوّلاً .

- ولكنك مقيم في ألمانيا ولا تأتي إلى البيت إلاّ اسبوعاً أو اسبوعين كل عام أو عامين.

- كان عليك الحصول على رقمي والاتصال بي إلى ألمانيا لتسألني .

- لابأس .. ماالذي تريد أن أفعله الآن ؟

– يمكنك أن تعيد بناءها من جديد ... وليس لدي أي اعتراض ... إنك رجل مثقف وأنا أحب المتعلّمين ... ولأنني أحبّك أريدك أن تعلم ماقاله لي المحامي : إذا أعيدت المخالفة المزالة فإن من يرتكبها يوقف عرفيّاً ...

رمقته بابتسامة عارمة ... وأنا أنزل درجات المبنى القليلة ...

حين دلفت إلى الشارع رحت أتأمّل أسطح المرائب المنتشرة على امتداد الشارع : لاشك أن خلفها أطفالاً يمرحون .

لم يكن ينبغي لي أن أفعل ذلك، هكذا حدّثت نفسي ... فحين سكنت البيت ذا السطح الواسع، فرحت ابنتي نور ذات السنوات التسع وقالت : بابا ... هذا البيت لي ... أرجو أن تزورني أنت وماما واخوتي كل يوم كي نلعب الشطرنج ونأكل (الآيس كريم) معاً... على حسابي .

حين هُدمت المظلّة ، غدا سطح المرآب مزرياً ... جلست نور في زاوية الغرفة حزينةً وهي ترقب السطح من النافذة : بابا صار بيتي يشبه العراق وكوسوفو ... بابا ... لماذا يفعل الناس ذلك ... كل الجيران لديهم بيوت وبرادي ويلعبون ... أين سألعب بعد اليوم ؟!...

- يانور .. ياحلوة .. القانون (لناس وناس) .. تعلّمي جدول الضرب حتى أعود ... إنّه القاعدة الأولى في الحياة .

ولأنّها لم تفهم ، إلاّ بعضاً مما قلت ، سألتني : إلى أين أنت ذاهب يابابا .

أجبتها : عليّ واجب .. سأؤدّيه سريعاً وأعود .. سأذهب إلى المهندس والمختار وجارنا الذي اشتكى .. وإلى الشرطي ورئيس البلدية السابق ... إنّهم جميعاً مستاؤون مما جرى ومن هذا القانون الذي يخرب البيوت ... لقد أبدوا تعاطفاً معي ... ولا بدّ أن أذهب لأقول لهم : شكراً لهذا الحب.

المسألة مسألة وقت

حين التقيته نسيت همومي، وأشرقت لحظة الشباب مرة أخرى. كأنّ ثلاثين عاماً فُقدت من ذاكرة الزمان، وظننت أنني مازال زميل (عبدو) المعلّم في مدرسة الأخوّة الخاصّة.

لاأعلم بالضبط كم من الوقت مضى وأنا أسير في الشوارع على غير هدىً... أقف عند سور الحديقة وأتحدّث إلى شجرة أصابها السوس: من الذي غرسك.. كم سنة وأنت هنا..

كيف كان شعورك حين مرّ بك الكواكبي، وحين احتمى بجذعك أنصار هنانو؟

والله حرام.. إذا كان نهر قويق يغدق عليك مياهاً عذبة، فلماذا سمحت لهم بقطع مياهه عنكِ ؟..

ها... ليس بيدك حيلة... ها ... طال السوس الجذع وأنتِ بانتظار الاستئصال ... ألا يمكنك أن تبصقي في وجوه الذين يفكّرون بتحويلك إلى حطب لمدافئهم كي يقيموا مكانك داراً للقمار ...

ماذا ... أتعيّرينني أيتها الشجرة الوقحة ... أنتِ واقفة باستسلام، أما أنا فإنني مازلت أقاوم.. واللهِ .. سأجعلهم يدفعون الثمن غالياً ... سأشرشحهم في الصحف والمجلات كي أحرّم هدم عريشة بعد الآن.

ماذا ... أنا لاأتقن غير الثرثرة؟.. مضى عليّ ثلاثة أشهر وما زلت أجلس تحت الأنقاض وأفكّر في طريقة تمكّنني من إعادة العريشة التي كانت تظلّلني؟...

نعم .. صحيح... ولكنني أريد أن أتّخذ خطوة صائبة ... صحيح أن رؤساء التحرير يظنّون أن مشكلتي فردية، وهم لايتعاملون مع حالات فردية... يهمهم الشأن العام. ولكن ماذا

من أين حصل صاحب البناء على الرخصة ؟!.

المهم، لقد أنقذني عبدو المعلّم من هواجسي حين التقيته...

- كيف أحوالك ؟...

- والله زمان ...

جلست على الرصيف غير مبالٍ بما يقوله الآخرون عني... ولكنّ الذي أدهشني أنّ صاحبي جلس قربي متربّعاً ...

تحدّثنا عن أحوالنا وعدد الأولاد والأعمال التي نقوم بها الآن.. وحين سألته عن الحي الذي يسكن فيه .. تأوّه قائلاً :

- آه ياصديقي، لقد وضعت يدك على الجرح .. بيتي القديم الذي تعرفه في المحافظة .. تركته بعد أن عدت من إعارة السعودية، واشتريت منزلاً بعيداً عن أهل زوجتي .. تعرف .. كان الباب أمام الباب، وهذا جلب لي مشاكل كثيرة ... المهم .. تركت البيت مهجوراً سنوات طويلة .. ثم نصح لي بعض المعارف بأن أؤجره إيجاراً سياحيّاً ... مردود الإيجار كبير، وهو مأمون من قصّة تحوّل البيت إلى ساكنه .. ومحميّ من مسألة التخمين... كل ستة أشهر تسكنه عائلة

كنت مذهولاً وهو يحدّثني عن ذلك كلّه، وأنا أتذكّر شكل مهندس البلدية وهو يأمر بإزالة العريشة من بيتي .. تربّعت مثله ووضعت رأسي بين يديّ خشية سقوطه .. وأنا أبلع لعابي بعد أن شعرت بعطش شديد، استمرّ في حديثه :

- أجّرته ثلاث مرّات، الأول صيني.. الثاني فرنسي .. الثالث سعودي ... ثم بقي بدون مستأجر لأنّ بدل إيجاره مرتفع حيناً، ولأنّ طالب الإيجار لم يكن يريحني أحياناً أخرى...

ذات يوم رنّ جرس الهاتف ثم طالعني صوت سمسار العقارات:

- مبروك .. لك عندي مفاجأة عظيمة.

- ماهي ياصطّوف ؟

- عندما آتي ستعرف .. المهم جهّز حالك، خلال ربع ساعة سنأتي لعندك.

تُرى ماهي المفاجأة التي يمكن أن يُتحفني بها صطّوف... ثم مالعلاقة التي تربطني به وتسمح أن تكون بيننا مفاجآت؟.. هو دلاّل عقارات، وأنا صاحب بيت للإيجار. لن أطيل عليك .. المهم قرع صطّوف منزلي وكانت برفقته – فعلاً مفاجأة – إحدى المطربات الشهيرات ... أتحزر مَن ... لن تخمّن ... أؤكّد لك أنها لايمكن أن تخطر في بالك...... إنها الشابة الدلّوعة صاحبة الصوت الليلكي .. هل تصدّق ... راميا .. تريد أن تستأجر بيتي ... أتعرف ... فكّرت لحظة .. إن بيتي سيدخل التاريخ ... لكنني .. بعد قليل.. تهيّبت...

ياأخي ... المطربة قد تجعل البيت مشبوهاً ... رفضت ...

أبدت استعدادها لدفع أيّ مبلغ أريده ... ولكنّ شيبتي رفضت هذا الإغراء .. في آخر عمري يقولون: عبدو المعلّم فتح بيته لراميا ... وتشيع الأقاويل .. وتعلم ماتنشره المجلاّت الفنيّة .. ولكنّ زوجتي المصون لم توافقني على الرفض :

– أنا أعرف عائلتها وأصلها ... وقد دخلت قلبي ... صحيح إنها مطربة ... ولكنّها مهذّبة وصوتها رائع.

ابني صبحي – الله يسلّم أولادك .. كم ولد عندك ؟

– ثلاثة

– أدامهم الله ... صبحي همس في أذني .. يابابا .. المجلات تكتب عنها أنّها متديّنة ولا تحبّ السهر .. انظر إنها مسكينة منكسرة وكما قال لك صطوف .. هي تريد البيت مؤقّتاً لحين عثورها على بيت فخم للشراء .. وقد نقنعها بشراء بيتنا بسعر جيّد.

زوجتي عاودت الإلحاح ... نحن أحق بالمبلغ .. ثم هل نسيت أمي .. الباب عالباب وكلّ تحرّكاتها مرصودة .. فإذا رأينا مالا يسرّ أخليناها من البيت ...

المهم، من هون كلمة.. من هون كلمة .. ارتخى صاحبك .. وبيني وبينك صوتها بوَزن أسمهان .. وسماعها يعيد الشباب ...

توكّلنا على الله وأبرمنا معها العقد .. مئة ألف دفعَتها مقدّماً أجرة شهرين ... نتخلّى عنها ... لأ ... نحن أحق بالمبلغ.

صمت المعلم برهة حتى تمرّ الدراجة الناريّة التي حجبت صوته عني بزعيقها .. كما حجبت الأكسجين بدخانها الأسود الذي خلّفته وراءها ..

بعد قليل، استمرّ صاحبي بالكلام وأنا أفكّر في طريقة لإعادة تركيب العريشة التي أزالتها البلدية لأنني – من غبائي – اعتمدت على كوني صحفيّاً ولم أعتمد على جيبي .. قال لي

قلت هذا تفكير بلطجية .. نحن في بلد فيها قانون .. الأمور ليست فوضى. ومن دون أن أنتبه علا صوتي أثناء شرودي وقلت :

– والله فوضى .. وألف فوضى ..

انتبهت إلى صوت صاحبي :

– كيف عرفت ... مازلت أسرد لك الحكاية .. وحتّى الآن كل شيء تمام .. هل سمعت بما جرى معي؟..

– لأ .. لأ ياأخي استمر .. أنا أسمعك ...

– ياصاحبي ... الشهادة لله ... لاأستطيع أن أتكلم عن المخلوقة بسوء .. أدب .. أخلاق.. وطوال فترة وجودها في البيت لم يزرها أحد ، ولم تلحظ عليها حماتي مايُشين ... إلاّ .. أحياناً ... تضرب خادمتها .. ومرة واحدة زارتها أمّها .. وصوتها ارتفع ... كسرت دزينة فناجين وبضعة صحون وفُضّت المشكلة ... ماعدا ذلك لم يدخل بيتها إنسان ... ياربي.. ليش الكذب .. دخلت مرة أنا وابني لنصلح لها الكهرباء ... استقبلتنا بكل حشمة وأدب .. ولكن ... أمسكتني من يدي لتريني مصباح غرفة الطعام ... قالت لي :

– يأبو صبحي ... التمديد هنا غير صحيح ...

أتعرف ماذا فعلت ... سحبت يدي من يدها وقلت لها: نادني أستاذ عبدو لو سمحتِ ... أنا معلّم منذ ولدتِ... أتعرف ... أبعدتُ نظري عن نهديها النافرين من تحت الثوب وقلت لها: أنت بسن ابنتي لو كان لدي بنت ...

أتعرف بماذا أجابتني ؟

لم أجبه عن سؤاله ... ألحّ علي: أتعرف بماذا أجابتني ؟...

قلت: لا والله ... ماذا قالت لك ؟

– ها ... قالت لي : أنت أستاذ ؟ ... أنا دكتورة ... أنا طبيبة أطفال ... إذا لم تكن تعلم... أسمهان نفسها لاتجاريني ... اجلس واستمع .

جلست وصبحي مدهوشين بينما قالت وهي تدير إحدى الأسطوانات: صوتي الآن لايساعدني ... اسمع هذه الأسطوانة لي ...

أصغيت إلى صوتها الذي أسكرني ... شعرت بنشوة لامثيل لها ... يأخي الشوف مو متل الحكي ... أقصد السماع من الأصل ... أو بالأحرى من أسطوانة أساسية بوجود صاحبة الصوت .. غير حياة ...

ولا أدري كم من الوقت مضى وأنا أستمع وهي جالسة تهزّ رأسها بانتشاء ...

حين لاحظتُ غياب صبحي... ناديت عليه: صبحي.. أين أنت؟

انتفضت منزعجة: أوقفت الأسطوانة وقالت:

– عندما أغنّي لاأحد يتكلم أو يهمس.. أنت لاتفهم بالطرب...

جاء صبحي من إحدى الغرف وبرز خلفه رأس الخادمة وهي ترقب ماالذي سوف يحدث ...

الملعون صبحي.. ماهو قليل.. عكروت ... غافلنا ... وغاب مع الخادمة ... والحقيقة .. ليست خادمة .. إنها مساعدة .. شقفة .. بنت عشرين ... ولكني لم أشعر بالمأساة إلاّ بعد أن وقع الفاس في الراس ... صبحي بكالوريا .. صحيح أنّه نجح، ولكن مجموعه لايؤهّله إلا لمعهد تجاري ... طبعاً انكشفت الأمور واتّضح سر تراجع دراسته ..

كنت أسأل طوال خمسة أشهر عن صبحي... يقولون: صبحي يدرس عند زميله ... صبحي في المركز الثقافي ... صبحي عند أستاذ العلوم ...

والحقيقة أنه يبني علاقات غرامية مع روز...
المضروبة حلوة .. ولكنّني دفعت دم قلبي دورات وأساتذة ودروس خاصة ... والصبي يؤلّف قصصاً مع روز ...

ياسيدي ... سبعة أشهر ... وإذا أنت أخذت فرنكاً فوق المئة ألف .. أكون أنا قد أخذت... وكل أسبوع أو أسبوعين أهاتفها كي تدفع الإيجار المتراكم وهي تسوّف: - أنتظر حوالة مليون دولار... وحين تأتي سأعطيك الإيجار وزيادة ...

حين ذهبت إلى البريد لدفع فاتورة الهاتف، اكتشفت أن مبلغ الفاتورة المستحق هو مئة وعشرة آلاف ليرة ...

طبعاً معارفها كثيرة ... وتتحدث بالهاتف ساعات طويلة مع باريس ولندن ولبنان...

حين واجهتها بالمبلغ قالت: بسيطة ... بعد أيام أعطيك المبلغ وزيادة .

صمت الأستاذ برهة ثم فاجأني بسؤال اعتراضي: جنابك أبو ايش؟...

- أبو عامر ..

يأبو عامر .. آخر مرة اتّصلتُ بها شتمتني ووصفتني بعدم الفهم وقالت: مسألتك بسيطة ... ثلاثمئة ألف مبلغ تافه .. أعطيك إياه مع حبّة مسك .. ولكن لاتعاود الاتصال بي ..

– أبو عامر

– أبو عامر .. أبو عامر .. آه ياأبو عامر .. أنا محتار كيف أتصرّف ..

أتعلم ... أوقفني جارنا الصيدلي وقال: راميا مدينة لي بسبعة آلاف ليرة .. إنّها – والعياذ بالله – مريضة نفسياً وتتناول حبوباً مهدّئة. بعد ذلك ياأبو عامر .. اكتشفت أنّ جارنا الطبيب حذّر حماتي من النوبات التي تأتيها ... لقد حاولَت الانتحار أكثر من مرّة. وهي مدينة للحّام .. والسوبر ماركت ... وهم بدؤوا يطالبونني بالمبالغ ... وحين فاتحتها في الأمر، قالت: لاتهتمّ .. المسألة مسألة وقت ... بعد أيام سأدفع كل ماعليّ ... وفعلاً .. بعد أيام اكتشفت أن مبلغاً جاءها ودفعت كلّ ماعليها للصيدلي واللحام والسوبر ماركت. قلت في نفسي لابد أن أضغط عليها قليلاً حتى تدفع لي . وفي نادي الطرب استعنت بأصدقائي لحل المشكلة فنصحوا لي أن ألغي الصفر الدولي من الهاتف ... وهي لاتستطيع العيش من دونه ... ولا شك أنّها ستسعى للدفع . وفعلاً ... ألغيت المكالمات الخارجية .. أتعرف ماذا حدث ؟

اتّصلت بي وأسمعتني موشّحاً طويلاً ثم ختمت كلامها: - بسيطة .. ستنال عقاب فعلتك.. حتى لو جاءتني الحوالة .. لن أدفع لك حتى تعيد الاتّصال الدولي ...

وأنا محتار .. ياأخي .. إلى مَن ألجأ .. وكيف أحصّل أموالي ... لجأت إلى الشرطة وحين سمعوا باسمها قالوا: إنّها فنّانة محترمة .. ولا شك أنّها تمر بظروف صعبة .. اصبر عليها وستعطيك كل الدين ... حفلة واحدة تغطّي كل الديون المتراكمة وتفيض ...

قلت للشرطة : ولكن ياسادتي ... هي مريضة .. ممنوعة من الغناء ومن إحياء الحفلات..

قالوا: مسألة وقت، غداً تشفى وتصبح ثريّاً من ورائها ... وغمزوا لي: ألم تدفع لك خدمات بدلاً من المال ؟.. ومع الأيمان المغلّظة لم يصدّقوا أنني مصاب بالتهاب بروستات حادّ.. ولا تنفع معي حبوب فياغرا أو سواها .. المهم ياأبو عمر .. ياأبو عامر .. عندي رحلة اطّلاع علمية لمدة أسبوعين إلى إيران ولا أدري من أين أدبّر التكاليف .. ولا أعرف كيف أتصرّف مع المخلوقة بنت الحلال.

ولأنّه يظن بأنني قادر على اجتراح المعجزات لمجرد كوني صحفياً ... قلت له :

بسيطة ... بسيطة ... سافر وسنجد لك حلاً بعد أن تعود .. أنا أعرف بعض الأوساط التي تنتمي إليها .. وإن شاء الله خير .. المسألة مسألة وقت ... ستحصل على أموالك .. وأعيد عريشتي إلى بيتي.

قال وهو يقف : أي عريشة ؟

قلت له وأنا أنفض مقعد بنطالي : هذه حكاية أخرى أحكيها لك بعد أن تعود.

* *

بعد أسبوعين ... جاءني عبدو مهرولاً :

– مصيبة ياأبو عمار ... مصيبة ...

– هدّئ من روعك ... قل لي ماذا جرى ؟

أمسك يدي وقال : تعال معي ترَ بنفسك ...

وصلنا إلى بيته ... البيت خالٍ من المفروشات ... نظيف ... ليس فيه أيّ أثر لعفش.. ليس فيه سوى بعض الأواني وأدوات الحمّام المبعثرة وكيساً كبيراً من الأوساخ ..

راميا عاقبت الأستاذ عبدو ... باعت له كل مفروشاته وغادرت المدينة ... ذهبنا إلى الشرطة ... شرحنا لهم الأمر ... حتى رافقتنا الدوريّة كلّفنا ذلك عشرة آلاف ليرة ... فُتح المحضر ... تحوّل الأمر إلى المحكمة ...

وبعد تفتيش وتنقيب عرفنا الأشخاص الذين اشتروا أثاث المنزل عن طريق صطوف... والحل الأمثل الذي ارتآه قسم الشرطة أن نعيد ثمن الأثاث إلى المشترين ونستعيد الأثاث حتى تنجلي الأحوال ويتمكّنوا من العثور على راميا ... دفعنا ثمن كل قطعة بالمبلغ الذي قاله كل مشتري وأكّد عليه صطوف، بوصفه وسيطاً في عملية البيع والشراء ... صطوف قال: أنا دلاّل ... قالت إنها اشترت كل شيء منك .. وأنها تريد بيعه فساعدتها على ذلك وقبضت عمولتي .. ماعدا ذلك لاعلاقة لي بشيء ...

الأستاذ عثر على أغراضه ماعدا طاولة الطعام، فلم يتذكّر أحد من الذي اشتراها .. ولأنّها طاولة فخمة، كما يقول الأستاذ، بدأ يراها في نومه وهي تُحمل على الأكتاف لتوضع على متن طائرة من نوع ميراج ...

الأستاذ عبدو صار يهذي : طاولة راميا .. خدمة سعودية .. عشر سنين ... ياليل ياعين .. تاريخك يا تاريخي .

صبحي، في المعهد التجاري يتنقّل من روز إلى فوز إلى ساميا ...

وأنا ... لم أعد راغباً بالعريشة .. وضعت سقف بيتون مسلّح وأنشأت غرفة كاملة فوق سطح المرآب... ووضعت في خزانة الأحذية قرب باب البيت عشرين ألف وبجانبها سيف

جدي وقلت لأولادي: إذا لم أكن موجوداً .. كلّما جاءكم شخص يعترض على بناء الغرفة أعطوه الفي ليرة واجعلوه ير السيف وأنتم تدفعون له النقود .. وقولوا له بجلافة : الله معك...

إياكم أن تقولوا له أنني صحفي... فقط أعطوه المبلغ واصفقوا الباب خلفه...

حتى الآن... مضى عشر سنوات على بناء السقف والغرفة بشكل مخالف لكل القوانين.. وما يزال السيف في مكانه .. وما تزال في خزانة الأحذية ستة عشر ألفاً ... ولا يعرف أحد طبيعة عملي ... ولا شك أن الغرفة ستُسوّى بشكل نظامي على اعتبار أن إبقاء الوضع على ماهو عليه قاعدة سارية المفعول.. والمسألة مسألة وقت ...

عندما تكون كاتباً

لو كنت ضابطاً، ماكان ليستطيع أن يفعل مافعل. بل كان سيحاول التودّد إليّ، ومن المؤكد أنه سينحني لـــ... - عفواً - من أجل أن يحصل على رضائي لأخفّف عنه عبء العمل، أو لأمنحه إجازة يزور فيها أسرته... بل ماكنت لأسمح له أن يسكن في الطابق الذي يعلو طابقي... لأنه جندي وأنا ضابط.

ولكنني لست ضابطاً، وهو ليس جندياً عندي، ولهذا فعل مافعل.

عندما كنت في الصف العاشر، شرح لنا مدرب الدفاع المدني أهمية أن يكون المرء عسكرياً، فالمزايا التي يحصل عليها كثيرة... يأخذ راتباً جيداً... يحترمه الناس.. ويتجاوز المرور في الازدحام. في الفرن يأخذ خبزه بسرعة ويمضي... وفي وسائط النقل يقدّم له الناس أدوارهم .. الشرطة المدنية لاعلاقة لها معه .

وكنت أعرف أيضاً إن بإمكان العسكري أن يتخطى شارة المرور من غير أن يجرؤ شرطي المرور على مخالفته .. الناس لايحترمونه فقط، بل يهابونه أيضاً .. وياويل من يدوس له على طرف.

حين سألت مركز التطوّع قالوا: تأخذ راتباً مقداره أربعمائة ليرة كاملة، وتصبح رقيباً بعد ستة أشهر.. ولك مؤسسة خاصة من أجل التموين والدخان .. بأسعار مخفّضة .

قلت في نفسي: هذه فرصة جيدة .. أتخلّص من الدراسة المملّة ومن سيطرة والدي، ويمكنني فوراً أن أتزوج الفتاة التي أحب .

حين سألت والدي عن رأيه بعزمي على التطوع، قال: اصطفل.

وكنت على وشك أن (أصطفل) لولا أنني – بعد أيام قليلة – رأيت بأم عيني ضابط الفتوة ينهال بالضرب على تلميذ، لمجرّد أنه يرتدي قميصاً أحمر تحت بزّة الفتوة... كان يضربه على وجهه بكلتا يديه وبعنف شديد.

لذلك كرهت أن يكون المرء ضابطاً ... وتراجعت عن قراري.

ستقولون أني غبي... لاتقولوا ذلك... أعرف أنني مجرد رقيب قادم... أو مشروع رقيب ولست ضابطاً.. أعرف ذلك .. لم أنسَ أنني سأصبح رقيباً إذا تطوّعت .. ولكنني – لاشك – سأدرس لآخذ الثانوية ومن ثم أقدّم طلباً كي أتحوّل إلى سريّة الضباط... الوضع يصير أسهل حين يكون المرء طالباً يأخذ

ولكنّني – على كل حال – لم أتطوّع .. ولم أغدُ لا رقيباً ولا ضابطاً، والمارديني لم يصبح عسكريّـاً عندي.. ولهذا تجرّأ جاري صلّوح المدهّن وسكن الطابق الذي يعلو طابقي.. ثم تمادى في جرأته وفعل مافعل.

لو كنت رئيساً للبلدية، كان سيقدّم الشكوى ضدّي وستُرفع – بالنهاية – إليّ، فأمزّق شكواه أو – عفواً – أمسح بها ...

ستقولون – مرة أخرى – إنني غبي.. نعم .. في هذه أنتم محقّون .. لو كنت رئيساً للبلدية ، ماكنت لأسكن هنا ... ثم ماكنت لأنصب عريشة فوق شرفتي المكشوفة.. لأنني – كما تظنون تماماً – كنت منحت بعض الاستثناءات .. وتغاضيت عن بعض التجاوزات.

وسيشرّف أي متعهّد أو تاجر بناء أن يقدّم لي أرضاً في المكان الذي أحبّ .. ومن خلال الدخل الإضافي الذي يتمتع به رئيس البلدية في (هيروس) يستطيع خلال أسبوع أن يبني أفضل (فيللا) في منطقة (طسوا قرش)... ولكنني لست رئيساً للبلدية، ولذلك فعل مافعل.

طبعاً عنده أموال كثيرة جاء بها من ماردين – مسقط رأسه – من خلال إتجاره بالـ... والعياذ بالله. بدر جزءاً تافهاً

لهذا هدم شجرة العائلة حين أزال العريشة واستراح. والذي ساعده على ذلك هو طبيعة عملي. فالكاتب صار ممسحة للجميع... الناس يطالبونه : أنت متعلّم .. فهمان .. تستطيع أن تعبّر بأسلوب لبق مقنع .. قل للحكومة إن الرواتب لاتكفي .. وأن الموظف يعمل ليل نهار حتى (ينتعل سلسفيل أبيه) ثم تقدّم له الحكومة راتباً شهرياً لايكفيه (أسبوع).. المجاري تصعد حتى الطابق الثاني في أكثر الأحيان، لأنها لم تصمَّم بشكل يراعي الكثافة السكانية والتوسّع العمراني .. الناس غرقوا بالرشاوي .. (والعترة) على المسكين – المعلّم وأمثاله الذين ليس لديهم باب يرتشون منه، ومع ذلك سُدّت عليهم منافذ التعليم الخاص والدروس الخاصّة والدورات.

نعم – والله – مالكم عليّ يمين – قال لي صحفي يعمل في جريدة (ريهامج) الرسميّة :

ياأخي (طفرت) .. مالك عليّ يمين .. والله لو استطعت أن أرتشي أو أسرق لما قصّرت .. ولكنَّ الأبواب مسدودة بوجهي .. منذ أكثر من عشرين سنة أعمل في هذه الصحيفة

وهكذا، كلّما قابلت أشخاصاً من شرائح مختلفة ... يتذمّرون ... ولأنّني لاأجرؤ على كتابة شيء مما أسمع .. أكتفي بأن أشاركهم أحزانهم ..

نعم .. لاتسخروا مني، ... ماتفكّرون به صحيح وأعرفه تماماً : حتى لو تجرّأت وكتبت.. لن تجرؤ أي صحيفة أو ناشر على إذاعة ماأكتبه ... الأعذار – تعرفونها طبعاً – لقمة العيش والحرص على استمرار مورد الرزق فما فائدة الكلام.

صحيح مافائدة الكلام .. لأنّني – من جهة أخرى – مطالَب من الحكومة ... لا... لا... ليس من الحكومة بالتحديد .. إنّني مطالَب من أي شخص أقابله .. ليس وزيراً أو مديراً بطبيعة الحال .. ولكن أي قارئ في دار نشر، أو مسؤول عن أي صفحة من الجريدة ، أو أي برنامج إذاعي .. أو ماشابه..

أي واحد منهم أكون مسؤولاً أمامه ويطالبني بشيء من العتب الممزوج بالتعنيف : ياأخي أنت فهمان ... عليك توعية الناس .. هل نستطيع تخريب عقول الأجيال وإفساد تربيتهم من خلال

السماح بالدروس الخصوصية التي غدت تجارة .. العلم يجب أن يُحترم كي تتقدّم بلادنا ... هل يمكن أن نرفع الرواتب

وهكذا أمسيت – بوصفي كاتباً – أمسيت ممسحة للجهتين : الناس يحملونني مسؤوليّة شقائهم، ومن يعدّون أنفسهم مسؤولين في الحكومة يحمّلونني مسؤوليّة تبرير تجويع الناس.

ولأنّني مطالَب من الجهتين، تهملني الجهتان معاً : الناس يظنون أنّني بجرّة قلم أستطيع إجبار الحكومة على تغيير سياستها .

والحكومة تريدني أنموذجاً في التحمّل، ويجب أن أكون مثلاً للآخرين في الصبر على المصائب، وإيكال أمري لله في الملمّات، والخنوع إلى ماتؤول إليه أحوالي بوصفه قضاءً وقدراً، وبالطبع لايستطيع أحد الادّعاء بأنه قادر على ردّ القضاء.

ولهذا لم يتدخّل أحد حين هدّ الدهّان القادم من ماردين عريشتي فوق رأسي...

عفواً .. عفواً ... تدخّل الجيران من خلال تشوّقهم إلى ماسيحدث وترقّبهم له : ... الكاتب المرموق لابدّ أن تسانده

والحكومة تدخّلت أيضاً .. نعم .. لقد استجابت إلى شكوى جاري فوراً وأرسلت كتيبة لهدم العريشة مغتنمة فرصة ممكنة لتطبيق القانون، ولمنحي شرف أن أكون مثالاً للآخرين في الخضوع لمواده التي دُوّنت منذّ ستين عاماً ولم تُتَح الفرصة لتطبيقه حتى الآن...

نعم .. الآن فرصة سانحة ... المارديني دعم البلدية بدخل إضافي لبعض موظفيها، ومنحها مناسبة كي تخرج من صمتها الرهيب وتجد عملاً لموظفين يتقاضون رواتبهم منذ عقود ولا شغل لهم سوى التوقيع على جداول الدوام والانصراف.

وأنا لست ضابطاً ولا رئيساً للبلدية .. إنّني كاتب .. والكاتب رسول عليه أن يحمل خطايا الآخرين دون تذمّر أو تمرّد ... كما أنّه قوّال .. لايستطيع أن يدعم البلدية .. ولا خوف منه ..

ولو أنه كان مسنوداً أو يده تطول لما وصلت الشكوى إلى المسؤول عن شجرة البلح في هيروس بعد أن غدت ملفّاً عليه آلاف التوقيعات المرصوصة في أوراق كثيرة لايستطيع أن يحملها حمار.

لاشك أنّكم تتساءلون الآن عن سرّ غبائي الذي منحني طاقة على إخباركم بكل هذه القصّة المزعجة..

لا... لست غبياً ... أخبرتكم كل هذه القصّة كي أقنعكم بمطلبي .. كل ماأرجوه منكم أن تقاوموا فكرة إقامة نصب تذكاري لي بعد أن أموت ...

لماذا ؟... لأنّني لاأريد أن أغدو مكاناً أميناً يلجأ إليه من يريد أن يبول ...

لست ضابطاً .. ولست رئيساً للبلديّة ... ولكنّني – أيضاً – لست مبولة للآخرين .

مكاشفة

ما جدوى الكتابة إذا كان الرقيب الذي نحمله في داخلنـــا أقسى وأكثر إرهاباً من ذلك الذي ندّعي أنه يراقـــب حركاتنـــا وسكناتنا للإيقاع بنا ؟

لم يعد ذلك الذي يراقب النصوص مخيفاً بالـــشكل الـــذي نتوهّمه، لأنه – مثلنا – يدرك أن مانصرّح به لايعدو أن يكون تنفيساً عن أحزاننا على وطن يذوي ونُطحن معه تحت متاريس سلط خارجية استطاعت تنمية عداءاتنا بيننا حتى أمسينا نحمل وحوشنا في داخلنا ونمضي.

نحن المثقِّفين بتنا نتسقَّط عثــرات أشــباهنا، أو يتــسقّط أشباهنا عثراتنا محاولين إقنـــاع ذوي الفعــل بأننـــا فاســـدون مفسدون . لقد أثارني اثنان في يوم واحــد، المحـــامي الـــذي استشرته في أمر عريشتي التي أزالتها البلدية بناءً على أوامر جاري (الطيّب)، والأديب الذي بدا متحيّراً كيف يمكن أن يقنع الآخرين كي يكاشفوه .

أما المحامي، وهو حقوقي قدير يمارس المهنة منذ عقود، فقد بدا حذراً يراقب الباب وأنا أشرح له مشكلتي :

نصف البلد تنعم بمخالفات متعدّدة مــن كــل الأشــكال والأنواع .. منها مايؤثّر على أسس المباني، ومنها مايؤثر على البيئة فيزيدها تلوّثاً .. ومنها ماينشر السموم بين أبنائنا وذوينـــا .. المرور لايعبأ بالمخالفات ولا بالضجيج .. مئات المركبـــات تنشر خلفها سرطاناً مرئيّاً يلتفح بالسواد .. وعــشرات تحمــل طابع وقود وتستعمل آخر .. الأبواق تصمّ الآذان وتكاد تصيبنا بالجنون ... ومبانٍ كثيرة تعاني من سوء الـــصرف الـــصحي فتتجمّع الأقذار في الأقبية فيضطر سكّانها إلى استعمال طرائق بدائية للتخلّص منها خوفاً على مبانيهم من الانهيار ...

البلدية ليس لديها القدرة علـــى تغطيـــة تكـــاليف تجديـــد المجاري كي تجاري التوسّع السكاني الجديد..

المرور لايستطيع أن يوظّف لكل مركبة شرطيّاً يراقبها ..

التموين ليس لديه العدد الكافي ليقمع الغش والاحتكار والتلاعب بالأسعار...

التربية لايمكنها أن تركّب ضميراً لكل معلّم ... والمعلّم لايكفيه الراتب مما يضطره إلى القيام بعمل آخر يحصّل منه الدخل الأساسي، ممّا يجعله يهمّش العمل التربوي، فيذهب إليه بنصف صحو وربع وعي وبكثير من الاستهتار وانعدام الهمّة .

يبدو أن المشكلة بدأت من عندي... لماذا تزوّجت وأنجبت أطفالاً ثم سعيت كي أؤمّن لهم مسكناً... وفوق ذلك كلّه .. أردت أن أحمي بيتي بعريشة، بعد أن أسهمت في الكثافة السكانيّة التي لاتحتملها إمكانيات البلدية في مدينتي ...

أنا أتكلّم وعين المحامي على الباب ويداه على بطنه كأنّه يريد حجب صوتي عن الرقيب الذي يقبع في داخله.

أما الثاني، وهو أديب مرموق، يفكّر كيف يمكن إقناع المثّقفين بالتجاوب معه كي يحقّق الغاية من برنامجه الإذاعي الجديد " مكاشفات " ..

كلّما حاور مثقّفاً أسرّ له بما هو شائع، مما يجعل برنامجه اسماً على غير مسمى، لذلك فقد اقترحت عليه أن يفتتح المكاشفات بي.

وحين تأكّد من أنني لن أبخل عليه بالمكاشفة حول مايقلقني .. تهللت أساريره وأسرع إلى آلة التسجيل قبل أن أغيّر رأيي وأجبن :

- نلتقي الآن مع الأستاذ وائل الكاتب المعروف الذي لايفتأ يتحفنا بأفكاره الجديدة النيّرة التي تساهم في دفع عجلة التقدّم في بلادنا التي نتطلّع إلى إعادة مجدها القديم لتسنُّم قياد الحضارة من جديد...

أستاذ وائل : الصراحة هي الخطوة الأولى التي تقودنا إلى التقدّم .. وبرنامجنا الجديد (مكاشفات) يحاول أن يستنير بآراء مثقّفيه وطرائق تفكيرهم من خلال آرائهم الجريئة والصريحة التي يمكنهم أن يزودونا بها من خلال مكاشفاتهم.. بماذا يمكنك أن تكاشفَنا اليوم ؟

- أرحّب بك وأُثني على برنامجك الجديد الذي يحاول أن يرصد مايعتمل في نفوس الأدباء والمثقّفين، ويحثّهم على قول مالا يقال.. أو مايعدّه الناس سرّاً لايمكن البوح به خشية عواقب الرأي الصريح ...

ولكنّني – بصراحة – أريد أن أكاشـفك بـأن تفكيـري متمحور حول شيء واحد منذ عدة شهور، مما يجعلني أفكّـر فيه على الدوام، بل كثيراً مايقضّ مضجعي فلا أنام .. وكـل ماأكتبه منذ ذلك الوقت حتى الآن يدور حول الموضوع نفسه، ابتداءً من مشكلة انخفاض أسعار النفط.. حتى مأسـاة الحيـاة البشرية التي عانى منها جلجامش وسارتر وابن عربي ...

– أعزّائي المستمعين .. لقد تشوّقنا فعلاً إلـى مكاشـفة الأستاذ وائل، ولا بد أن تكون مثيرة ... أسـتاذ وائـل نحـن نصغي إليك، ماهي مكاشفتك للسادة المستمعين ؟

– إنها العريشة ياسيدي ...

– العريشة ؟ أرجو أن توضّح للسادة المـستمعين هـذا المصطلح الجديد ؟

– ليس مصطلحاً ولا هو بجديد .. كل مافي الأمر أنّ في منزلي شرفة مكشوفة أقمت فوقها سقفاً متحرّكاً فجاءت البلديـة وهدمته ...

أوقف آلة التسجيل ... رمقني بنظرة عتاب صامتة تحمل علائم الاندهاش، ثم قال :

ألم تكتب سلسلة من المقالات عن تلك العريشة ...

– نعم، ولكنها لم تُجْدِ

- والاستطلاع الذي نشرته مع بعض المحامين والمهندسين ؟

- لم يُجْدِ أيضاً .

- ألم تقل إنّ مهندس البلدية قال لك: ابنِ العريشة ولا خوف عليك ؟

- نعم قال ، وقال أيضاً : إذا عاد جارك إلى الشكوى ستعود البلدية إلى إزالة العريشة.

- أين المشكلة إذن ؟

- المشكلة ياصديقي أنّني فقدت احترام جيراني الذين فقدوا الثقة بجدوى العمل في هذا البلد... كل التجار والصنّاع في حيّنا، لديهم عرائش، ولم يجرؤ أحد على هدمها ... أما عريشة المثقّف الصحفي الذي ينبّه إلى الممارسات الخاطئة وينتقد الناس على تصرّفاتهم ويكتب ويكتب لقاء (فرنكات) .. فقد هُدمت عريشته ... فما جدوى الثقافة والعلم في هذا البلد؟ وما دمت بلا سقف وبلا أمان ... كيف يمكن أن أناقش مشكلة الصراع العربي الصهيوني ... أو المرايا المحدّبة ؟...

ولم أكد أكمل كلامي حتّى وضع الأديب يديه على صدغيه وأطرق برهة... رفع آلة التسجيل عالياً ... أعاد الشريط إلى أوّله :

– أعزائي المستمعين نحييكم ونرحب بكم في برنامجنـــا الجديد " مكاشفات " وحتى تكون للبرنامج مصداقيتُه ... ســـأبدأ بنفسي أوّلاً فأكاشفكم بأنّ هذا البرنامج، في ظل مثقّف لاتظلّلـــه عريشة أو سقف يؤويـــه، لايمكنـــه الاســـتمرار ... أعزّائـــي المستمعين ... انتهت حلقتنا لهذا اليوم.. بل لقد انتهى البرنامج الإذاعي الجديد في دورته الحالية ...

وهذا (أحمد) يقول لكم : الوداع .

شيء يشبه الدّائرة ..

شيء يشبه الزّكام

لم أكن راغباً في الزعامة، ولم أفكّر بأن يكافئني الجيران على اهتمامي بشؤون الحي وأهله. لكنّهم أغروني بالانضمام إلى لجنة الإشراف العامة.

قال أبو عبدو:– يامحمد أنت تتعب كثيراً مع أهل الحي، ولك أيادٍ بيضاء على مايجري فيه.

ولأن أبا عبدو زعيم الحي ، قلت في نفسي: إنه رجل جدير بالزعامة، وهو لمّاح لأنه يميّز الصالح من الطالح.

أمّا محسن، عضو لجنة الحي، فقد حدّثني عن همومه: – ياصاحبي تعبت من اللجان، وأنت شابّ هُمام تستطيع القيام بالمهمّة على خير وجه.

تتالت الأيام وقَرُبَ موعد انتخاب لجنة الحي، فتحمّس أبو النور الأرمل الذي تشاغل عن أحزانه بالعمل على تنفيذ توجيهات اللجنة طوال أعوام. وقد لاحظت اندفاعه حين هرع إليّ قائلاً :

– حان الوقت يامحمد كي نكون معاً في اللجنة الجديدة.

بصراحة أقول لكم: لم يُثرني اندفاعه وحماسه الشديدان، وإنّما أكبرت فيه روح المغامرة ومحاولة التغلّب على الزمان.

- ترشيحي لن يضير اللجنة القديمة، ولا بأس من دخول لعبة الانتخابات، على الأقل، كي أعرف عدد الأصوات التي يمكن أن تناصرني من أهل الحي الذي لم أقصّر في خدمة أيّ واحد منهم.

وفي الطريق، وقف أبو النور يتحدّث مشيراً بكلتا يديه :

- هل تعلم أن ممدوح الطبّال رشّح نفسه ووافق له رئيس اللجنة على الترشيح؟ صمت برهة.. تابع السير وتبعته .. ثم توقّف ثانية، وضع يديه على صدغيه وصاح:

- يكاد عقلي يختلّ .. تصوّر يامحمد.. حمدو العتّال .. تعرفه.. صاحب الأداة التي توضع على الزنّار .. تعرفها (الغمزوية) . هذا الرجل صاحب المشاكل الذي يقلق الحي بصوت آلة التسجيل كلَّ ليلة.. هذا الذي صرخ بوجه الزعيم: أنت لست زعيماً .. أنت حرامي.. واللجنة كلّها مرتزقة.. حصدتم آلاف الليرات من وراء مصاعد الحي وتنظيف المجاري وإصلاح شبكات المياه ... هذا... هذا... الذي سمّاه

ضرب أبو النور جبهته بكفّه وهو يقول: – أخي.. هذا الكلام لايقنعني.. ماعلاقة رئيس البلدية بلجنة الحي.. نحن لانطلب التوظيف في البلدية.. هذه لجنة أهلية لاعلاقة لأحد بها سوى أهل الحي أنفسهم.

تابع أبو النور سيره وهو يُخرج أوراقاً من جيبه، دفع بها إليّ قائلاً :

– إقرأ... ثلاث صفحات فيها سرد سريع للأعمال التي قمت بها، ويقول لي محسن أنت لست مؤهّلاً للاشتراك في اللجنة ... خبير في شؤون الاقتصاد، ومستشار الرئيس الفلبيني الراحل.. ومنسّق العلاقات الدولية التي قرّبت وجهات النظر بين غواتيمالا وشمال أفريقيا... مقترحاتي هي التي أوقفت حرب الدانمارك.. سلني ماشئت في الطب والهندسة والتاريخ... وكما تعلم ... أنا من أنصار الحفاظ على الصحة.

وقف أبو النور ثانية... كبت سعاله .. أخذ الأوراق من يدي.. دسّها في جيبه وأخرج علبة الدخان .. أشعل سيجارته..

لن أكذِبَكم .. شعرت بالأسى ووجدتني أندفع بنبرة حادّة :
– أوافقك الرأي.. لابدّ أن تقبل اللجنة ترشيح كل من يشاء، مادامت القوانين تنطبق عليه.. والمسألة مسالة انتخاب، وأهل الحي أحرار في اختيار من يرونه مناسباً.

المهم .. دخلنا مقرّ اللجنة ولم نجد الرئيس، ولأنني كنت مرتبطاً بموعد هام، لم أستطع انتظاره طويلاً، لذلك تركت طلب الترشيح في عهدة أبي النور وغادرت.

بعد ثلاث ساعات رنّ جرس الهاتف في منزلي استأذنت ضيوفي أحمد ولؤي ورفعت السمّاعة .. كان أبو النور على الخط فأخبرني أن رئيس اللجنة يرجو منّي ومنه سحب الترشيح، ووَعَدنا بأن نصبح من أعضاء اللجنة في الانتخابات التي تلي هذه الدورة. فوجئت بصدور مثل هذا القرار عن الزعيم الذي غدا يظنّ أن أعضاء اللجنة يعيّنون من رئيسها السابق.

قال أحمد: أنصحك بسحب الترشيح فليس من مصلحتك معاداة الزعيم.

قلت: – ياصديقي.. أنا أحب اللجنة ورئيس اللجنة، وترشيحي لايعني العداوة لأحد.. فقط أريد أن أثبت لنفسي أننا في حيٍّ راقٍ يقدّر أهله من يساعدهم، ويصرّون – رغم فساد الأحياء الأخرى– على التعامل بأسلوب حضاري... أبو النور مهندس زراعي قدير.. ما المانع من قبول ترشيحه؟

تدخّل لؤي قائلاً : – أنا معك ياصاحبي.. لاتسحب الترشيح وليكن مايكون.. الحرية خبزنا اليومي، والديمقراطية مبدأ لايرفضه أحد.

قرّب فمه من أذني وهمس: – كل من يخدم الحي من غير أعضاء اللجنة يقولون إنّه ذيل لها.. وهذه صفة لاتليق بأحد أليس كذلك؟!

صمت لؤي برهة ثم رفع سبّابته باتّجاهي وقال:

– إذا قبلت بأن تسحب الترشيح، فإنني أضعك في مصافّ مناصري النزعة الاستبدادية.. (المَوَانات والخواطر) ليس لها دور في هذه الحالة. لكل من يشاء الترشيح، ولكل ناخب اختيار من يشاء.

تدخّل أحمد قائلاً : – ياجماعة .. الأمور كلّها مرتّبة (من فوق) ولا تجدي أيّ مكابرة فيها.

صاح لؤي غاضباً : – وَلَو .. من فوق أو من تحت .. لايهمّ .. النتائج لاتهمّ .. المهم أن نبقى مصرّين على المبدأ وليكن مايكون .

سألني أحمد ببرود شديد : – أستاذ محمد .. ماهو قرارك ؟

تملّيت وجه كلٍّ منهما برهة .. لم أجب .. مددت يدي لابتلاع دواء الصداع وأنا أفكّر في القرار الذي أحبّ أن أتّخذه غداً .

* * *

لم تنتهِ القصة ... لاتخمّنوا شيئاً، سأحدثكم بنفسي عمّا جرى...

في اليوم التالي حملت غضبي واقتحمت غرفة رئيس اللجنة، وما كدت أجتاز الباب حتى ترك سمّاعة الهاتف وانتفض ساعياً إليّ بسرعة ويده ممدودة باتجاهي .. صافحني قائلاً: ابن حلال.. كنت أتصل بك الآن... مبروك.. أجمعت اللجنة على ترشيحك في قائمة التضامن.

داهمني صمت مفاجئ .. تعثّرت حتى وصلت إلى أقرب كرسي .. تمالكت نفسي ثم قلت له: أرجو أن تقبل اللجنة اعتذاري... يسعدني أن أشارك في أعمال الحي من خارج اللجنة، وأنا أتابع نشاطي الخاص في البحث العلمي.

قال رافع : – اجتمعت لجنة الحي الحالية، وهي تناصر أن تنضمّ إلى اللجنة دماء جديدة... وقد اتفقنا على دعم ترشيح شباب الحي الفاعلين.

تجوّل نظري في أرجاء الغرفة، وعندما وقعت عيناي على محسن تبادر إلى ذهني سؤال مفاجئ:

– لماذا وصفت أبا النور بأنه غير مؤهَّل للانضمام إلى لجنة الحي.

أجابني بهدوء تام : – إنّه يحمل مؤهّلات عالية، وهو فهيم في الجغرافيا والفلك والطب... ولكنّه مبتدئ في معرفة شؤون الحي، وهو حديث الإقامة فيه، وأساليبه ساذجة في معالجة مشاكله.

حين سادت لحظة صمت... أدركت أن اللجنة تريد إخلاء المكان للتداول في شؤون الانتخابات القادمة. استأذنت وغادرت.

وأنا أجتاز الشارع، تلقّفني أبو النور قائلاً: – لابد أن نضع قائمة تواجه اللجنة القديمة.. نترك الرئيس معنا ونتكاتف مع بعض المرشّحين.

قلت له: – ليست لديّ الرغبة في أن أكون في مجلس الحيّ، وإنما قدّمت ترشيحي لكي أمارس حريتي الديمقراطية وحسب.

قال: – أعرّفك على بعض الأشخاص الذين يمكنهم أن يدعموا قائمتنا المستقلّة.

قلت له: – ياأخي .. اتّصلت بي المرشّحة سميرة كي نتعاون في حملتنا الانتخابية، وشرحت لها فهمي للانتخابات... إنني أثق بآراء الناس وبقدرتهم على الفهم والتمييز بين الصالح والطالح، ولست بحاجة إلى قوائم تفرضني أو تفرض غيري على الناخبين.. إليك عنوانها ونسّق معها كما تشاء .

* * *

في اليوم التالي تهاديت إلى مركز الانتخاب متأخّراً... صادفني رافع عند المدخل فقال معاتباً :

– المرشّحون هنا منذ ساعتين.. وأنت تأتي متبختراً ؟!..

في البهو المؤدّي إلى مركز الاقتراع وُزِّعت عليَّ ستُّ قوائم مختلفة، مع بعض السكاكر والحلوى.

استعرضت القوائم : القائمة المستقلّة وفيها أبو النور والعتّال والطبّال ومعهم اسمان قويّان في المجلس القديم– لائحة الشباب المندفع ومعهم أبو النور – لائحة مناصري تجديد الحي ومعهم رافع – لائحة صوت المرأة ومعهم أبو النور– قائمة تشجيع السياحة ومعهم أبو النور ومرشّح من المجلس القديم – القائمة المتضامنة وهي تشمل بعض أعضاء المجلس القدماء وفيها أسماء جديدة.

المهم أني لم أجد اسمي في أيٍّ من تلك القوائم المطبوعة، حتى أن جاري البقّال سألني:

- سمعت أنك مرشّح فهل انسحبت ؟

قلت له: - لم أنسحب.

قال: - لم أجد اسمك في هذه الأوراق.

أشرت إليه كي يقرأ ورقة صغيرة ملصقة على زجاج باب مركز الاقتراح وقلت له: - تلك هي قائمة بأسماء المرشّحين ... أمّا القوائم الأخرى فهي لوائح انتخابيّة.

دخلت معمعة الانتخابات أراقب مايحدث من بعيد ...

لكنّ المفاجأة كانت بانتظاري .. تقدّم إليّ شابّ وأعطاني لائحة التضامن التي شكّلها المجلس القديم وقد ضمّت اسمي في أسفلها.

لمح رافع استغرابي فدنا مني قائلاً: لقد تداولنا اسمك منذ أيّام واتفقنا على أنّك جدير بالثقة.

* * *

بعد صدور النتائج .. كان اسمي على أهبة النجاح، فسررتُ بمحبة الناس التي اتّضحت من غير حملة انتخابية ... جاء ترتيب أبي النور بعدي مباشرة وتفاوتت نسبة الأصوات التي حازها الآخرون بعدنا.

أتصدّقــون ؟!..

سررتُ لأنني لم أفز بالانتخاب ... كل أعضاء المجلس القديم أسفوا لأنني لم أفز... وكثير من الناس لم يصدّقوا أنني بقيت على شفا الدخول في المجلس... هذا بالضبط ماأسعدني...

لجنة الحي نافذة يتّضح من خلالها حبّي للآخرين.. وقد تحقّق لي ذلك من دون اللجنة، فبادلوني حبّاً بحبّ .

ولكنّ الذي ساءني أن بعض المرشحين الذين فشلوا في الانتخابات بدؤوا يطلقون الشائعات حول الحي وأهله :

– إنه حي سافر يريد أن يسيء إلى مدينتنا.. أهالي الحي لديهم ارتباطات سريّة مع الأجانب .. أسماء لجنة الحي يعيّنها خبراء في الامبريالية العالمية ..

أمّا أبو النور فقد بات مقتنعاً أن لجنة الحي مدينة بفوزها لجهات خفيّة.

الحق أقول لكم : – قد أفهم شائعات المرشّحين الفاشلين الذين بدا لهم العنب حامضاً، وقد أفهم أسباب النميمة التي تنتشر بين أعضاء المجلس الجديد (المتضامن) على الغائب منهم... ولكن مالم أستطع فهمه حتى الآن : لماذا لاينتقل من الحي بعض أهله الذين ينعتونه بالحي المتآمر الامبريالي؟... لماذا يصرّون على البقاء فيه، ويستمرون في هجائه ؟ ...

إنه سؤال موجّه إليكم مباشرة : – كيف يمكن الخروج من تلك الدائرة ؟..

نظرتُ إلى السّاعة بتثاقل، وبصعوبة أدركت تطابق المؤشِّرَين على رقمين متماثلين.. بعد قليل سمعت إحدى عشرة طلقة.. بدت السّاعة وكأنّها ملعب لكرة القدم. فركت عينيّ.. ولأنّ قدميَّ لم تصلا إلى أرض الغرفة، اضطررت إلى القفز من فوق السرير، ممّا أحدث ألماً في أعضائي..

وقت طويل فصل بيني وبين باب الغرفة.. عندما وصلت، فوجئت بأنّ المزلاج فوق مستوى نظري بكثير.. وقفت حائراً : كيف يمكنني الخروج؟

لم أجد سوى ملقط الشعر منقذاً لي .. تناولته وبدأت أنقر على الباب.. حين فُتح، لم أرَ سوى حذاءٍ رياضيّ. رفعت نظري إلى الأعلى فإذا بابنتي نور ذات السنوات التسع تصرخ في وجهي بملامح بدت بريئة:

صحّ النوم بابا ... مالت نحوي... وحين طبعت قبلةً على خدّي أحسستُ بأنّ فمَها أكبرُ من مساحة خدّي بكثير: - باي بابا ... خرجت وهي تحمل حقيبتها المدرسيّة على ظهرها... أدهشتني رشاقتُها رغم أنها تحمل هذا الشيء الكبير...

يبدو أنّ المنزل أصبح خاوياً من الجميع... لم أستطع الوصول إلى الصنبور كي أغسل وجهي... استجمعتُ قواي

لاتظنّوا بأنّه لم يخطر بذهني أنني مازلت نائماً .. وأن ماأراه لايعدو أن يكون حلماً . لذلك وخزت خاصرتي بطرف المرآة... فأحسست بألم فظيع .

بدأت أفكّر : هل داهم مدينتي زلزال ... هل تناولتُ طعاماً أو شراباً أدى إلى تقلّصي ؟.

تذكّرت أنني تناولت العشاء مع ابنتي وبقيت كما هي .. فما الذي حدث لي ؟

البارحة ضمّتني سهرة حميميّة في نادي حلب مع ثلاثة من رفاق العمل ... وكي لانعاقرَ الخمر، شربنا كثيراً من الجعة امتثالاً لوصيّة رفيقنا الطبيب بسّام الذي نصح لنا بها بوصفها مادّة تدرّ البول، وتساعد على التخلّص من الرمل الذي لايخلو جسم إنسان منه.

صحيح أننا أكثرنا من الشرب، ولكنْ إمعاناً في الفائدة، وليس لسبب آخر - لاسمح الله -

الخدر الذي أصابنا جعلنا قادرين على التخلّص من عقدة الخجل ورهبة الخوف من الحديث الصريح... وفي غمرة انهماكي في النّقاش، لفتت نظري ساقان طويلتان انحسر الثوب الأسود عنهما...

اختلست النظر بخجل، وكي أتجرّأ على التمعّن في المرمر اللامع تحت الغلالة، طلبت زجاجةً كبيرة من العرق.

دار حديثُنا على مسألة التخلّف ومشاكل البطالة وغلاء الأسعار وقمع الساسة. كما تكلّمنا على أخطاء بعض أصدقائنا وسوء معاملتهم، وتبجّح بعضِهم رغم تفاهة إنجازاته التي يعتزّ بها.

ولأنّ مشاركتي انحصرت في هزّ الرأس بالإيجاب على كلّ مايُقال، ظنّ وائل أنني ثملت. لكنّني – في الواقع – كنت أنوّس عينيَّ للفتاة التي بدا نهداها نصف عاريَين.

حين اتّخذ حديثُنا طابع الجديّة والغيرة على الوطن والدين، علا صوتنا، ولمحتُ السّاقين تتجهان نحوي... تسارعتْ نبضاتُ قلبي حتى خُيّلَ إليّ أنني أسمع صوتها..

– Bonsuar، قالت شفتان حمراوان تظهر وراءهما ابتسامةٌ صفراء.

قدّم لها يعقوب كرسيّه باحترامٍ شديد. جلست وهي تقول:

– Sorry.. سمعتُ طرفاً من حديثكم .. اسمي الدكتورة حميدة، وأنا متخصّصة في القضايا الإسلامية، ولي وجهة نظر في الأمر الذي تبحثون فيه.

صادف جلوسها على زاوية الطاولة، قربي تماماً .. وحين لفّت ساقاً على ساق، انحسرت غلالةُ الثوب، وبدا مافوق

وآخر جملة أذكر أنّني سمعتها كانت تقدّم مصطلحاً جديداً للأحزاب التي تمارس دور (الحرملك) في ظلّ الحزب الملَكي الروسي.

كنت منهمكاً في إشباع فضولي للتلذّذ بالجزء الذي بقي خافياً عن ناظريّ.

انفضّت الجلسة ونحن نتتابعُ في تقبيل يد المحدِّثة، بعد أن وافقناها على كلّ ماقالته عن تحرير المرأة والتقشّف والنظر بعين العطف إلى المستضعَفين.

يبدو أنّ عصام – مثلي – أصابته جلسة الفتاة بلوثةْ، ممّا دفعه إلى الإصرار على اصطحابي إلى بيته:

– إنّني أقيم في المنزل وحدي، وأريد أن أريك قناةً جديدة ظهرت على إحدى المحطّات الفضائيّة..

خلال ثلاث ساعات ونحن نراقب مايُعرض على قناة Venus ، لم نتحدَّثْ سوى بضع جمل تُعقّبُ عمّا نشاهد : – سبحان الخالق .. ماهذا الجمال ... ولكن ... يتّضح – أيضاً – ممّا نرى أن المرأة في الغرب لم تعد سوى سلعة للعرض والإيجار...

وحتى لا أتحوّل إلى زبون، ما إن أُغلقت القناة، حتى استأذنته بالرحيل.

ها ا ا ا .. ربما يكون العشاء الثاني هو السبب...

جاهدت طويلاً للوصول إلى سمّاعة الهاتف: - عصام .. كيف أحوالك .؟

- بخير.. سوى أنّك أيقظتني وما زلت أشعر بالحاجة إلى النوم .

- ولكنّني تقلّصت ... ألا تلاحظ تغيّراً في حجمك ؟!.

ضحك ضحكةً دوّت في أذني: - الله يسامحك.. هل هذا وقت المزاح.

حين أغلق السّماعة فُجعت... العشاء إذاً لاعلاقة له بالحجم.. كما أن هزّةً أرضية لم تحدث في مدينتي.. هل يُعقل أن أكونَ أوّلُ من أصيب في العالم بهذا المرض ؟..

عدت إلى مكابرتي، وشحذت قواي لتشغيل جهاز التلفزيون..

في القناة الثانية خطبة الجمعة .. الناس بحجوم طبيعية .. الخطيب يتحدّث بصوت جهوَري حماسي يُنبي عن قوّة بدنية واضحة ... شعرت بقشعريرة تهزّ كياني وأنا أستمع إلى أمثلته عن الأخلاق الإسلامية الرفيعة التي سنّها الأولون...

ولكن .. ياللغرابة ... ((أيّها الأخوة.. يامعشر المسلمين الصالحين .. إن في عصرنا الراهن تجسيداً واستمراراً لتلك الأخلاق السامية التي تمنحنا انتصاراً بعد انتصار...)) وهو يتفوه بتلك الكلمات... يا للغرابة ... بدأ شكله يتقلّص ... يصغر ... يصغر... بدت لحيتُه غابةً تخفي خلفها وجهاً يشبه وجه الأرنب... العمامة كأنّها قبّة الصخرة تسبح في الهواء...

فركت عينيّ ونظرت... لم يتغيّر شيء... المصلّون بحجومهم الطبيعية وعيونهم ترقب أرنباً يخطب.

أدرت المؤشّر إلى القناة الأولى ... ها !!! .. هاهو مدير شركتنا بطلعته المهيبة يتحدّث إلى برنامج (طائر التلفزيون) ...

الهاتف يرنّ : – أهلاً يعقوب ...

– سامي .. هل تلاحظ مأراه ؟

– ماذا ؟

– مديرنا يصغر ... كلّما طال حديثه أكثر يشتدّ حجمه صِغَراً ...

– صح .. صح .. ماذا نفعل ؟... إذا علم الناس قزامة مديرنا لن نقدر على مواجهة أحد بعد ذلك...

– المخرج صاحبي... سأتّصل به... لابد أن يستخدم تقنية عالية كي يعيد إلى المدير مظهره اللائق.

آه .. يعقوب ذكي ... هاهو صوته يظهر على الشاشة :

- مديرنا العظيم ... صاحب الفضل في كلّ ماآلت إليه حال الشركة من تطوّر وتقدّم... (ألاحظ أن مديرنا بدأ ينتفخ... ويعود تدريجياً إلى شكله الطبيعي..).

يتابع يعقوب: - إنه مثال الأخلاق الحميدة والتفاني في العمل... منذ جاءنا لم نعد نحمل همّاً .. يحمل عنّا مشاكلنا ... (المدير يكبر ويعقوب يتابع) : - إنّنا ننافس الشركات الكبيرة، وعمّا قريب نرسل خبراءنا إلى الشركات الأخرى كي نعلّمها أساليبَنا في توزيع أدوار العمل بشكل رائع ...

وجه المدير يسدّ شاشة التلفاز... لم تعد الكاميرا قادرة على تصوير حجمه الكامل.

ولأنّ خطّ يعقوب مشغول بحديثه مع التلفاز لم أتمكّن من تحذيره، لذلك صرخت بامتعاض:

- ولك يعقوب.. حاج ... قد ينفجر مديرنا من كثرة النفخ...

ولأنّ لديَّ موعداً هاماً ... لم أتمكّن من متابعة البرنامج.

الساعة السادسة وقد أتأخر على الحاضرين... خرجت مسرعاً ...

: - أهلين جار... ردّ السلام أبو أيمن من غير أن يلاحظ شيئاً عليّ ...

سرت كخروف يُقاد إلى مسلخ ... وفي الطريق: شرطي المرور يوقف سيارة كبيرة ينزل منها رجل قزم يعطي الشرطي قطعة نقود تملأ كفّه... رجال أقزام يتشاتمون. الغريب أن الأطفال لم يتغيّر شيءٌ فيهم ...

ولأنّني لم أقدر على امتطاء سيّارة الأجرة .. هرعت راكضاً إلى شارع بارون وأنا أفكّر: – ماالذي سأقوله لهؤلاء الذين تكبّدوا مشقّة الحضور ظنّاً منهم بأنّ لديَّ شيئاً مفيداً أقوله لهم.

الأغرب من ذلك كلّه ... لاحظت أنّني كلّما اقتربت من المكان وأنا أفكّر في فجيعة الآخرين ... يزداد حجمي.. وما أن وصلت إلى مبنى الاتّحاد حتى عدت إلى حجمي الطبيعي...

أيّها السّادة أرجو ألاّ تكيلوا لي المديح المجاني... إنَّ لي حجماً أخشى أن تؤذيه المجاملة ... فأُمسي مثل المدير.

إعلان مؤجّل

- مرحباً يا.. جماعة..

هذا ما قاله الرجل الذي اقتحم الغرفة بعصبيّة جعلته يعبث بشيء بدا نافراً من تحت سترته الخضراء الداكنة.. تراءى للجالسين نتوء حديدي أسطواني الشكل يتدلّى من تحت الحزام.

لم يكن المداهم أطول من مرافقَيْه اللذين وضعا أيديهما كلّ على خاصرته..

- وعليكم السلام..

أجاب بعض الحاضرين بصوت خافت.

أمّا الأستاذ فاضل فقد قطع تقديمه للشاعر.. وقف وهو يومئ للقادم الجديد مقدّماً كرسيّه إليه.

صفعتني رائحة ماعز من تحت إبطي الرجل الذي أشار بكلتا يديه قائلاً :

- استمرّوا.. استمرّوا..

ضمّ إبهامه إلى سبّابته ، وتابع :

- أستاذ فاضل.. أريدكَ لحظة !

تعثّر الأستاذ فاضل بالكراسي من حوله وهو يحاول اللحاق بكتيبة الرجال الذين سبقوه إلى الممر.. لم تطل دهشتنا

– نقدّم لكم اليوم.. بلا مقدّمات.. الشاعر (بعد لحظـــة).. تعرفونه.. تفضّل..

ما الذي جعل الأستاذ ينسى اسم الشاعر.. ومـــا الـــذي جعله يغادر باكراً على غير عادته.. إنّها المرّة الأولـــى التـــي يتخلّى فيها عن جلسة النقد المعتادة التي تعقب الأمسيات..

أسئلة ظلّت تحفر في رأسي طوال أسبوع.

في الأسبوع التالي جئتُ إلى النادي قبل نصف ساعة من الوقت المعتاد ، وأنا أمنّي نفسي بالحـــصول علـــى إجابـــات لأسئلتي المقلقة.

تتالى القادمون واحداً إثر آخر.. بدأت الأمسية.. حـــين دخل الأستاذ فاضل وجلس على أقرب كرسيّ عنـــد البـــاب ، لاحظت عيون الحاضرين تتّجه إليه وكأنّهم جميعاً ينتظـــرون إجابات عن أسئلة أثارتها زيارة الغريب..

ولأنّ التساؤلات عادت تراودني مـــن جديـــد.. تـــشتّت انتباهي ولم أعد أعي ما يقوله القاصّ.. تجوّل رأسي في فضاء الغرفة ، ثمّ استقرّ على ورقة مثبّتـــة علـــى خزانـــة الكتـــب الصغيرة.. طوال الأمسية رحتُ أفكّر في طريقة للوصول إلى الخزانة كي أقرأ ما كُتِب فيها ، ولكنَّ ذلك لم يتسنَّ لي إلاّ بعد

«إعلان هامّ.. »

إنّ النادي الثقافي الأدبي يعلن لأعضائه الكرام ومحاضريه وأدبائه بأنّنا لا نتدخّل بالسياسة..

واحتجاجاً على هذا الإعلان قرّرتُ الغياب عن النادي بضعة أسابيع..

قريتنا بلا كهرباء ، ومحظوظة هي الأماكن التي تنعم بالمصابيح.. وبالرغم من المصباح الذي أضفى على المدرسة رونقاً خاصاً منذ العام الماضي ، فقد هجرها الأستاذ فاضل احتجاجاً على أنّها ليست مكاناً رحباً يتّسع لطموحاته..

لقد أعلن أنّ النادي – بشموعه الصغيرة – أقرب إلى نفسه من صفّ المدرسة الذي يقتصر على كتابين اكتفى واضعوهما بالإشادة بمنجزات المختار ورصد تحرّكاته وسكناته التي تكافح ولوج قِيَم المدينة إلى عالم قريتنا المتآلفة.

بعد أعوام قلائل سيأتي دور النادي ليتسلّم مصباحاً كهربائياً ، وإلى ذلك الحين ، تكفينا هذه الشمعات لأمسياتنا المتميزة.

هكذا صرّح الأستاذ أكثر من مرّة ، مضيفاً إلى أنّنا – هنا – نستطيع التفكير بكلّ الطرائق الجديدة في العالم كي نضفي الحيوية على نشاطاتنا بعيداً عن المنهاج المقرر وحده

لقد قال أكثر من مرّة إنّ طفلاً صغيراً في المدينة يحفظ عشرات أضعاف الآيات الواردة في كتب القرية..

بعد أسابيع عدتُ إلى أمسيات النادي بعد أن شعرتُ بخواءٍ داخلي.. وعقب انتهاء الأمسية نقل إليّ مخلص شَرْحَ الأستاذ فاضل للظروف التي جعلته يضع إعلانه السابق..

بعد بضعة أسابيع ، وفي إحدى الأمسيات ، دخل إمام القرية :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

جلس بصمت واتّزان وهو يستمع إلى الأمسية الشعرية ، ويحاول بين الفينة والأخرى تثبيت لحيته ، التي نعرف جميعنا بأنّها مستعارة ، ولم يجرؤ أحد على التصريح بذلك أمامه.. ولكنّ الحقيقة التي علمتها من ابني جعلتني أقنع الآخرين بالكفّ عن التغامز حول لحية شيخنا..

لقد رجع ابني ذات يوم من مسجد القرية وهو يقول :

- إنّه رجل صالح يا أبي.. فلماذا تتحدّثون باستمرار عن الصمغ المغشوش الذي يثبّت به لحيته؟!

قلتُ له : وما أدراك بذلك ؟

قال : سألته.. مولانا.. لماذا لا تترك لحيتك تطول وتتخلّى عن لصق اللحية ؟

فقال : يا بني.. بارك الله فيك.. المسجد ضروري لكلّ قرية.. واللحية ضرورية لكلّ مسجد ، ولأنّني (أجرودي) لا تنبت لي لحية طبيعية.. كان لا بدّ أن أستعير لحية.. كما تعلم يا بنيّ.. لزوم المسجد..

شيخنا مصغٍ باهتمام ، وبين فينة وأخرى كان يرفع عمامته الكبيرة ليحكّ رأسه..

بعد انتهاء الأمسية تحدّث بعض الحضور عن سمات الشعر الذي استمعوا إليه ، وأثنوا على طريقة اتّكاء الشاعر على التراث ، والتناص الذي استخدم فيه بعض الألفاظ القرآنية. وقبل أن تنفضّ الأمسية طلب الشيخ الحديث مبتدئاً بالبسملة والصلاة على النبي وآله.. وأورد جزءاً من الآية القرآنية الواردة في كتاب المختار ، قائلاً : ﴿ الشعراء يتبعهم[1] الغاوون ﴾.

ثمّ أمطر الحاضرين بخطبة عصماء طويلة تثاءبتُ خلالها ثلاث مرّات ، ثمّ قال :

– لماذا لا نقتصر في الشعر على مديح الرسول عليه

[1] الصواب : يتّبعهم.

ولأنّ معرفتي في اللغة متواضعة ، لم أحصِ له سوى سبع عشرة خطيئة نحوية.. المهمّ.. انتهت الأمسية على خير ، وانفضّ الحضور باستثناء الشيخ الذي أراد الانفراد برهة بالأستاذ فاضل..

في الأسبوع التالي ، تصادف جلوسي تحت الإعلان مباشرة ، ممّا مكّنني من إمتاع ناظريّ بقراءة الإعلان أكثر من مرّة :

«إعلان هامّ..»

إنّ النادي الثقافي الأدبي الفني يعلن لأعضائه الكرام ومحاضريه وأدبائه أنّنا لا نتدخّل بالسياسة والدين..

أفّ.. لقد أضيفت كلمة الدين.. بعد زيارة الشيخ النادي مباشرة.. ولأنّ صديقنا «جورج» غار على دينه أيضاً.. لم يترك الأمسية تنتهي من غير أن يضيف لمساته عليها.. فأضاف الأستاذ إرضاءً لجورج عبارة أخرى : «والأديان كلّها ما ظهر منها وما بطن.. »...

الغريب أنّ العدوى سريعة الانتقال ، إذ في الأسبوع التالي مباشرة ، وقبل بدء الأمسية ، لم يرتح خاطر «شريفة»

دخلت شريفة وصافحت الحاضرين جميعاً فــرداً فــرداً بنعومة بالغة وهي تُسبل عينيها لكلّ واحدٍ منهم ، ومن خلــف علكتها البنفسجية قالت للأستاذ :

– إنّني أتحرّج من حضور بعض الأمسيات.. لأنّني أرى أنّها تمسّ المرأة وتخدش الحياء.. مثل استخدام كلمات فاحشة :

نهدان.. ساقان.. شراع السفينة.. تفتّح الوردة.. غابــة.. كرز.. تفاحتان.. القمر.. التبن.. شرّع قلمه.. انفضّت الحفلة.. وغيرها..

مضغت لبانتها بضع مرّات.. نفختها على شكل بالون.. انتظرت حتّى انفجر ، ثمّ تابعت :

– أرجو أن تمنعوا تداول الجنس في أمــسيات النــادي ليحافظ على وقاره واحترامه..

وبلهجة رجل محاصَر ، لم يعد أمامه سوى التسليم ، قال الأستاذ : أمركِ ! وهرع إلى الخزانة مشرعاً قلمه وأضاف :

«الجنس بكلّ أشكاله وتضميناته ورموزه.. وكلّ فاكهة أو نبتة قد تُتّخذ رمزاً له.. ».

وحين رأى بعض أعضاء النادي وقوع الواقعة انــتفض أحدهم قائلاً :

– ولا يجوز استعمال اللون القرمزي بما يشين..

وأضاف آخر :

– ولا اللون الزهري..

وقال ثالث : اللون الأصفر..

أمّا مناصرو فرق كرة القدم ، فقد طالب بعضهم بعدم الإساءة للون الأخضر ، وتتالت الأصوات : الأزرق.. الأبيض..

الأستاذ يكتب كلّ ما يسمعه ، وما يزال مشرعاً قلمه بانتظار المزيد.. حين خيّم الصمت على أرجاء الغرفة.. فرك الأستاذ نظّارته وأضاف :

– وغير مرخّص لنا استعمال الألوان كافّة في أمسياتنا الأدبية..

وهكذا أرضى الأطراف جميعاً.

ولأنّ إمكانيات النادي محدودة ، تبرّع أحد الأعضاء من ذوي الخطوط الجيدة ، ونسخ الإعلان على لوحة كبيرة توسّطت جدار الصدارة في الغرفة..

صحيح أنّها سدّت منفذ الهواء الوحيد.. ولكنّها زيّنت النادي بخطّها الأنيق الذي صُبغ باللون الأسود الذي لم يأتِ على ذكره أحد.. ولأنّها كانت تلفت انتباهنا في كلّ أمسية أكثر من الشعراء الضيوف ، حفظناها عن ظهر قلب.

«إعلان هام»

إنّ النادي الثقافي الأدبي الفني يعلن لأعضائه الكرام ومحاضريه وأدبائه بأنّنا : لا نتدخّل في السياسة والدين ، والأديان كلّها ما ظهر منها وما بطن ، والجنس بكافة أشكاله وتضميناته ورموزه.. وكلّ فاكهة أو نبتة قد تُتّخذ رمزاً له.. ونشجب كلّ تعدٍّ على التقاليد والأعراف السائدة.. ولا يجوز استعمال اللون القرمزي والزهري والأصفر والأخضر والأزرق والأبيض بما يشين ، وغير مرخّص لنا استعمال الألوان كافّة في أمسياتنا الأدبية.. ولا نمسّ أي إيديولوجيا بسوء.. ».

وهكذا لم نستطعْ أن نفهم قصيدة أو قصّة خلال الأشهر الثلاثة الماضية.. لأنّ الأديب كان لا يتجاوز قراءة كلّ الكلمات الممنوعة في النص الذي يتلوه..

قال بعضنا :

– هكذا أفضل.. وهذا أدعى لتفتّح أذهاننا كي نقرأ ما بين الكلمات ونضفي على النصّ من خيالنا ممّا يجعلنا نساهم في عملية إبداعه..

في إحدى الأمسيات قرأ «معتصم» قصائده على الشكل الآتي :

العنوان : (فراغ) الربيع

شجر تألّق في المدى

شجر (فراغ) بالندى
شكراً لأشجار السنا
رفّت على أفق (فراغ)

ثمّ قال : تعرفون الباقي.. ولا داعي للإكمال.. وكانت الكلمات التي حجبها من القصيدة هي على التوالي : قناديل – تفتّح – الجراح.

وفي قصيدته الثانية «الصيف» ، قال :

شجر يتلألأ في (فراغ) قلبي
أم (فراغ) يتململ
أم (فراغ) فراشات وعصافير ؟
قال لي في شجن شتوي مزمن :
هل (فراغ) (فراغ)[2]

وكانت الكلمات المحذوفة هي : عتمة – عشب – رقصات – أفتح مصراعيها – أتوارى – قوقعة.

أمّا القصيدة الثالثة والأخيرة فهي : فراغ في فراغ ، يتخلّلها كثير من حروف الجرّ والنصب وكثير من الفراغات...

وهذه الحالة الإبداعية الجديدة تطلّبت نقداً إبداعياً ، حيث أبدى «ميس الخافت» إعجابه بما سمع قائلاً :

---

[2] القصيدتان من ديوان مصطفى أحمد النجار ، كلمات ليست للصمت ، 1998.

- إنّ رهافات الشاعر (فراغ) مــن (فــراغ) (فــراغ) روحه الميتافيزيقية ممّا (فراغ) في (فراغ) انبثاقاتــه الرؤيوية لينقلنا إلى مغزى فيزيقية الميتا..

وهكذا نجد أنّه (فراغ) وترك لخيالنــا (فــراغ) إكمــال المعنى وترميم (فراغ) الكلمات الناقصة، مما يــشكّل (فــراغ) أدبياً جديداً يعتمد على (فراغ) (فراغات) القصيدة.

وهكذا أخفى الناقد كلمات : تنبثق – مناوشات – يــدخلنا – مسامات – أمتعنا – الجامح – فجوة – جنــساً – تعبئــة – فراغات.

أمّا الأستاذ فقد كان يكتفي بكلمتين اثنتين في كلّ أمسية ، فيقول في البداية : (فراغ) الأمسية ، ويعنــي نفتــتح ، وفــي النهاية يقول : الآن ننتقل إلى (فراغ) فيغفل كلمة تعقيب.

لكنّه تدخّل هذه المرّة وقال : كنت أودّ لــو أنّ الــشاعر وضع فراغاً بدلاً من كلمة (أشعل) ، لأنّها تختــرق نــصوص القانون الذي وضعناه في إعلاننا.

لكنّ «شريفة» احتجّت على كلمة (تخترق) وطالبتــه أن يستبدلها لتصبح (يرتكب مخالفة) عفواً.. بل لتمسي (يخالف)..

بعد هذه الأمسية أقسمت ألاّ أعود إلى النادي ثانية..

واتّفقتُ أن أقيم كلّ أسبوع أمسية خاصّة بي.. أُحييهــا.. وأستمع إليها ، وأنقد نفسي من دون إعلانات مانعة تكبت مــا

وهكذا كنتُ أخرج إلى الفلاة كلّ أسبوع.. أشتم المختار وأتفوّه بكلّ الكلمات البذيئة التي أعرفها.. بل لقد اخترعتُ كلمات إبداعية جديدة.

وعقب انتهاء الأمسية كنتُ أتساءل :

"ولك يا فلان عيب عليك.. كلّ هذه البذاءة في داخلك وتُطالب بالصلاح ؟!

وكنتُ أردّ : يا سيّدي الفاضل.. واللهِ مضطرّاً أفعل..

إذا غابت عيناها.. وفقدنا مراقبة تفتّح الورود في حديقة خالية من البصّاصين ، ولم نعد نستطيع ممارسة شهوة الكلام في ما نراه مناسباً يساعد على ممارسة إنسانيتنا.. ماذا يبقى ؟!..

وكنتُ أجيب : لكنّك تجاوزتَ الحدود.. يا فلان.. يا حبيبي.. لكلّ شيء حدود..

- صح.. صح.. والله صح.. وأنتَ قلتها.. لكلّ شيء حدود.. للصبر حدود.. وأخشى أن أجنّ من الظلم الذي نباركه.. إنّني – يا صاحبي – أمارس علاجاً نفسياً لنفسي بنفسي.. ممارسة الحرية.. ولو بالفلاة أو بالخيال والأوهام.. أمر صحّي ينشّط أرواحنا..

المهم.. بعد الأمسية ونقدها.. كنتُ أعود إلى البيت

اللهمّ إنّ عبداً فقيراً مثلي لا يملك إلاّ الشتائم كي يـــروّح عن نفسه ، أنتَ أكبر من أن تعاقبه على تفاهات يتفــوّه بهــا نتيجة قهر لا يستطيع دفعه سواك.

أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم..

واستمرّت الحال على ذلك خمسة وعــشرين أســبوعاً ، وحين كنتُ أحتفل بالعيد الذهبي لاستمرار أمسياتي الــشتائمية بـــدون تعكير ؛ تبدّى لي المعارض الحميم في قعر كأس الماء مبتسماً :

- يا فلان.. يا حبيبي.. النـــاس يحتفلــون بالــذكرى الخامسة والعشرين باليوبيل البرونزي، وبعد فتـــرة مماثلة يصبح فضياً ، ولا يصلون إلى الذهبي إلاّ بعد انقضاء المئة..
- هذه في لوائحهم يا عزيزي.. دَرَك المختـــار قتلـــوا «أبو ظافر» لأنّه حفر بئراً لنفسه ، دفنوه في البئـــر وردموه ، ثمّ احتفلوا بالعيد الفضي لإخمـــاد الفتنـــة.

- بس !
- أخي لا تزعجني.. مشان الله لا تعتــرض.. اســمّي أعيادي ما أسمّيها ما دمــت لا أجبــرك ولا أجبــر سواك على الاحتفال معي.. دعني أفعل شيئاً واحــداً يحلو لي..

بعد عودتي من إحدى أمسياتي ، رأيتُ القرية في ظــلام دامس.. فأيقنتُ أنّ المولّدة الكهربائية الوحيدة في القريــة قــد تعطّلت ، وكما يُقال : «كمل النقل بالزعرور».. وبالرغم مــن أنّني لا أعرف معنى هذا المثل ، فإنّه ينطبق على حال القرية.. وكأنّه سار على لسان الناس من أجلها..

حين سمع القائم مقام المدينة بأمر القرية الظلاميّة ومــا

افتتح مقهى وضع فيه إذاعة تنقل الصوت والـصورة ، وزوّد النادي بمجموعـة كتـب توزّعـت عناوينهـا علـى : الديمقراطية – الحرية – العولمة – حقوق الإنـسان – أهمّيـة التعليم.. ولفت نظر كلّ من رأى الكتـب عنـاوين جديـدة : مخاطر الأيدز.. قوانين التبنّي.. تحديث المؤسسات الجنـسية.. والصحة الجنسية ، الذي طلب الشيخ استعارته فور وصـوله ، ورحّب ترحيباً كبيراً بوصول كمّية كبيرة مـن المطّـاط إلـى المسجد لزوم اللحى والعمائم ليتمّ تكييفها حسب الظروف على مبدأ شرعي أصولي : (تتغيّر الأحكام بتغيّر الزمان).

أمّا المدرّسون الجدد فقد أحضروا معهم كتباً لكلّ الديانات ، وشروحاً مختلفة لها ، ومقرّرات دراسـية جديـدة متنوّعـة ومحلاّة بالصور التفصيلية ، بما في ذلك الأشـكال المتنوّعـة للتكاثر لدى الكائنات الحية ، ووسعوا مناهج الدراسة بإضـافة مواد التعليم الرياضي والجنسي والموسيقي والتشكيلي والمبادئ السياسية.

ولم يلبث طويلاً حتّى أعلن المختار تضامنه مع النزعـة التحديثية ، فشاعت في القرية كلمة جديدة اسمها الديمقراطية.. صار الناس يتحرّكون باسمها..

نتيجة الظروف الجديدة حنثتُ بقسمي ، وعدتُ إلى متابعة أمسيات النادي.

بعد أسبوعين أو ثلاثة دخل الرجل الضخم تسبقه رائحة عطر فرنسي ، لم يبدُ الناتئ الحديدي من تحت حزامه ، وإنّما لاح بيده شيء ، قال لنا الأستاذ فيما بعد إنّه الحاسوب.

وبلطف زائد وصوت هامس أطلق بضع كلمات تطري العصر الحديث وتبيّن مزايا الديمقراطية، ثمّ أبدى رجاءه الحارّ بأن تُشطب كلمة السياسة من الإعلان ، انسجاماً مع التطوّر الحديث الذي يبيح للناس كافّة مناقشة الأمور السياسية لأنّها تعنيهم.. ولأنّها وُجِدت من أجل خدمتهم. ثمّ تتالى الوافدون.. الشيخ الذي خلع لحيته واكتفى بمصحف مذهّب على صدره.. رجا الأستاذ أن يعفي الدين من وصمة عار الشجب والمنع والإرهاب..

فشطب الأستاذ كلمة «الدين» من الإعلان..

و«شريفة» سترت كلّ ذرّة من جسدها بـ«فيزون» رقيق من لون جسدها.. وقالت : الجنس صار عِلماً ولم يعد من مبرّر لمنع الحديث عنه..

الرياضيون أباحوا الألوان..

واستجاب الأستاذ بشطب جميع العبارات المضافة من الإعلان..

ولم يعد الإعلان متضمناً سوى كلمة واحدة :

«إعلان هام»

إنّ النادي الأدبي الفني الثقافي يعلن لأعـضائه الكـرام ومحاضريه وأدبائه بأنّنا : لا نتدخّل..

ثمّ غدت أمسيات النادي يومية ، انـسجاماً مـع حركـة التطوّر في قريتنا ، وهكذا أصبحنا نأتي كلّ يوم إلى النـادي ، نجتمع في موعد ثابت ومحدّد ودقيق ، لحضور الأمسيات التي باتت حضارية تبعاً للعصر الديمقراطي ، فلم يعـد مبـرَّراً أن نستمع جميعنا إلى شاعر أو محاضر واحد.. بل بتنـا نـساهم جميعاً في الأمسية وبوقت واحد.. وبشكل نموذجي يلغي الحاجة إلى النقد والنقاش العقيم.

فبعد أن يقدّم الأستاذ الأمسية ، نلتفّ جميعاً حول طاولة أسطوانيّة كبيرة : ولا نتدخّل. ساعة بالتمام والكمال.. نتـوادع بعدها.. كلّ إلى منزله ليتابع فيه عدم التدخّل في شؤون الأسرة ، في عصر الديمقراطية..

ولكنّني – في الحقيقة – بتّ أنسلّ في كلّ يوم إلى الفلاة كي أتابع أمسياتي الانفرادية.. أشتم وأنقد وأتحاور معـي ثـمّ أتضرّع إلى الله كي يرسل طيراً أبابيل تودي بمختـار القريـة وبالقائم مقام المدينة، وتستبدل بشيخنا رجلاً تضفي عليه الوقار لحيةٌ أصيلة..

البارحة ، بعد أمسيتي الخاصة ، كنتُ متـضايقاً حتّـى الثمالة..

لم أعد إلى البيت فور انتهـاء أمـسيتي ، بـل تابعـتُ صياحي في أمسية متميّزة استمرّت فوق صخرة تطـلّ علـى القرية من أحد ثغورها..

ولشدّ ما كان تعجّبي كبيراً ، حتّى كدتُ أصيح من الفرح وأنا ألمح روّاد النادي يعودون واحداً إثر الآخر.. من أماسيهم الخاصّة.. وآخرهم الـذي لم أستطع مـع رؤيتـه صـبراً.. فركضتُ خلفه منادياً:

- أستاذ..

التفت إليّ.. أطلق ابتسامة صـافية باتّجـاهي.. وحـين وصلتُ إليه ، صافحني قائلاً :

- غداً نحاول تمزيق الإعلان.

بالرّغم من إلحاحهم المتواصل على مدى عشرين عاماً، مازلت متمسّكاً برأيي.

أبي في أمريكا .. أمي في أمريكا .. وأخوتي ... وهم يريدون – جميعاً – أن ألحق بهم لأحصل على الجنسية وأقيم هناك، هرباً من التخلّف الذي نعانيه هنا.

عشرون عاماً وأنا أكافح في وطني حتى بنيت لنفسي سمعة أدبية طيّبة .. أنهيت دراساتي العليا وعملت في الجامعة.

صحيح أنني عانيت الكثير في مشواري الطويل، وفُجعت بخيانة كثير من المعارف والأصدقاء.. ولكنني أرفض البراغماتية على الطريقة الأمريكية، حيث تكون العلاقة عقداً مقنّناً يستبعد القيم الأخلاقية ولا يعترف بغوث الملهوف أو حماية المستجير.

خلف كلّ تحيّة في أمريكا تكمن مصلحة، والحفلات الجماعية تُقسّم تكاليفها على كل المشتركين.

أما في البلاد العربية فإن الحب يشيع إلى درجة أن يضحّي الفرد بنفسه من أجل إنقاذ الآخرين من غير حساب للفوائد التي قد يجنيها من وراء شهامته.

أهلي في أمريكا يتقاسمون المصروف، وأنـــا – هنـــا – أعيش على حساب أصدقائي، ويعيش جيراني على حسابي ... والكرم – عندنا – لايُحَدّ ولا يُقنّن ولا يحتـــاج إلـــى مراســـيم تشريعية لتنظيمه .

اليوم وصلتني رسالة من والدي تحمل في طيّاتها مئتـــي دولار ورسالة تقول :

" عزيزي أحمد .. أرجو من سيادتكم التفــضّل بتــصديق وكالة المحامي من وزارة الخارجية وإرسالها إلينا في أســـرع وقت . ولا تنسَ إرفاق طلبنا بفاتورة الكلفة، بما في ذلك أجور الساعات التي تتكلّفها لإجراء ذلك، حتى ترسل لنـــا البـــاقي أو نوافيك بالمزيد. نرجو أن تفكّر بالقدوم إلينا مرة أخـــرى ولـــن نتقاضى منك لقاء تأمين العمل سوى راتب شهرين.

ا

لمخلص

و

الـــدك "

سأعترف لكم ياسادتي أنني – للوهلة الأولى – صُـــدمتُ بنصّ الرسالة الرسميّ. ولكنني – بعد أيام – بدأت ألفتي معها تزداد. لقد أوقظ تلك الألفة جاري الدهّان الذي يحتـــلّ الطـــابق العلوي من المبنى.

طرق الدهّان بابي وبرفقته ثلاثة من أقربائه، بدا يحتمي بهم وهو يقول: هل تملك رخصة بوضع عريشة فوق سطح المرآب الذي تملكه ؟

بوجه باسم قابلته وأنا ألحّ على العصابة المداهِمة كي تقبل ضيافتي، وحين أبوا، قلت لهم: الأمر لايحتاج أي رخصة .. بضعة أعمدة خشبية تحمل صفائح رقيقة لتحمي بيتي من حرارة الشمس ومطر الشتاء وغدر اللصوص . جيراننا هم الذين ألحّوا علي كي أحمي بيتي بها، وحين سألتهم عن رأيك، قالوا: الرجل لطيف وهو مقيم في ألمانيا، ولا ضرر عليه من حماية بيتك.

جيش من البلدية داهم بيتي وحوّله إلى أنقاض ... دخل من بيت جاري.. أنجز مهمّته بمرح ونشاط .. تناول وجبة غداء دسمة .. وغادر باتّجاه بيت آخر .. ولم ينسَ المهندس أن يهمس في أذني وصيّة جاري :

إذا أردت أن تبني السقف من مواد بناء نظامية، سيوافق جارك على الإجراء ولن يعود للشكوى؟! ...

أي قانون هذا الذي يُعلَّق على ذمّة جار، وسماحته ؟!

وأي قانون هذا الذي يسمح بتكاتف الجيران لإنشاء مبنى كامل مخالف ، غير عابئين بانهياره؟!..

هل في أمريكا قوانين مشابهة ؟.. هل تجبر أمريكا الجيران على التراضي والتماسك، ولو ضدّ القوانين؟ ... ذلك لايحدث بالتأكيد، لذلك نقول : يعيش العرب .. تسقط أمريكا .

أبي في أمريكا .. أمي في أمريكا .. وأخوتي ...

وأنا لاأبادل أصدقائي بالعالم .. نحن يد واحدة في وجه الظلم والافتراء عندما لايقع على أحد منّا شيء منهما ...

أما عندما يُحسّ أحدنا بسوء.. تتفكّك الأيدي ويبحث كلٌّ منا عن خلاص لنفسه ...

ابراهيم الذي كان في مأزق نتيجة المشاكل بين أهله وزوجه، وأمواله عالقة عند صطوف الذي عشّمه بأرباح باهظة، مما جعله يقع في حيص بيص، فلا هو يأخذ أرباحاً على ماله.. ولا هو قادر على سحبها ليسترهن بيتاً وينهي مشاكله العائلية ..

صطوف كان يفيه كل يوم مئة ليرة ويجعله يكتب صكاً بالإيفاء، مع أنه لم يكتب له صكاً بإيداع الأموال لديه ...

أخذتُ مكافاة كتابي الذي استغرق عامين من العمل المتواصل ودفعتها لصطوف كي يفي ابراهيم...

ابراهيم حُلّت مشكلته ... وأموالي طارت بفضل قانوننا العربي : " المفلس لايُحبس " ... وابراهيم لم تتحرك فيه الحميّة العربية ليطالب لي بالمبالغ التي أودعتها من أجله ... وجيراني

إنّنا عرب نتكاتف في السرّاء .. أمّا في الضرّاء ، فكـلٌّ منّا يبحث عن خلاصه، تماماً على الطريقة الأمريكية ...

ومع ذلك: يعيش العرب ... تسقط أمريكا

أبي في أمريكا ... أمي في أمريكا .. وأخوتي ...

وأنا أبيع منزلاً وأشتري آخر في وطنـي، وأنتقـل فـي معيشتي من حسن إلى أحسن...

البيت الذي اشتريته مات صاحبه بعد أن قـبض كامـل ثمنه، ولكنّ الورثة لايعترفون بتوقيع أبيهم، وحتى يفرغوا لـي ببقية أسهم البيت يريدون أن أدفع لهم ثمنه مرة أخـرى علـى الرغم من أنني أسكنه منذ عشر سنوات ... والحصة الأكبـر مدوّنة باسمي.

بعت البيت .. سكنه المشتري، صديقي الحميم، وحجـز بيتي الجديد حتى تتمّ له فراغة كامل البيت القديم ...

بيتي الجديد أيضاً حجزه صاحبه البائع لأنني تـأخّرت عليه بالقسط الأخير ...

والقسط الأخير كان يجب أن يأتيني مبلغه مـن صـديقي الآخر الذي (سندتُه) في مشروعه ووعدني وعـداً قاطعـاً أن

يعيش العرب .. تسقط أمريكا

في أمريكا تدفع الدولة الأموال عن النصّابين ثم تحـصّل مبالغها بطرائقها الخاصّة ... ونحن أحرار .. الدولة لاتتـدخّل بين الشركاء أو في العلاقات التجارية ...

إذا كان لديك شيك أو سند أمانة ... حذار من المطالبة به ..

فإذا لم يتّهمك المدين بتزوير السند الذي كتبه على نفسه ولم يرفع ضدّك دعوى جزائيّة، فلا أقلّ من أن يتقـدّم ببيـان يؤكّد فيه أن العلاقة بينكما علاقة تجارية .. وتصبح أموالك في (خبر كان) بفضل الحرية التي نتمتع بها في وطننـا العربـي الكبير ...

تعيش الحرية .. يعيش العرب .. تسقط أمريكا

أبي في أمريكا .. أمي في أمريكا .. وأخوتي

وأنا بين حرّيتي في الموت قهراً أو العيش ذلاً ... هنـا، وبين أمريكا التي تراودني، ومن الآن أشعر بأنني غريب عنها وبأنها غريبة عنّي، أسألك، ياأبي ...

أحبك ياأبي .. أحبك ياأمي .. أحبك ياجدّي العاشـر ... وأسأل :

لماذا خرجنا من الأندلس ولم نُدفن فيها ؟! ...

أيّ عيش تضمنه عائلتي لي وهي تخلّفني هنا، وتدعوني إلى هناك ... ترميني إلى شفا حفرتين بين علاقـــات حميميـــة تخفي اغتيالاً يتأهّب، وعلاقات براغماتية تتطلّب تأهّبـــاً دائمـــاً للاغتيال .. أو للحذر منه ...

يعيش العرب .. تعيش أمريكا

وأسقط أنا ريشةً في مهبّ الريح

بانتظار مولـــد جديد

بلا حرّية .. ولا ... أمريكا

اعتذار عن عدم المشاركة في أمسية قصصية

مساء الخير

أيّها السادة .. أعتذر عـن المـشاركة بأمـسية اليـوم، واحتراماً لوجودكم جئت شخصياً لأقدّم اعتذاري.

أيّها السادة .. كان بودّي أن أشارك في أمـسية اليـوم، ولكنّ الأحداث التي مرّت بي كانت عصيبة وصعبة، وكفيلـة بإيصالي إلى درجة الإحباط. وأعتقد أنه من واجبي تجاهكم أن أبيّن لحضراتكم الحدث الذي أوصلني إلى اليأس.

لاتظنّوا أنني أشير إلى عريشة بيتي التي أعملتْ البلديـة معاولها فيها.

لقد ساءتني عمليّة الاقتحام تلك، كما أزعجنـي أسـلوب تعامل مـوظّفي البلديـة معـي. المهندسـون، والمحـامون، والمحرّرون في جريدة الجمـاهير تعـاطفوا معـي، وكـذلك الجمعيّات والاتّحادات التي أنتسب إليها.

ومع ذلك تصرّ البلدية : القـانون قـانون .. والعريـشة ممنوعة .. نحن نعلم أن كل المرائب في حلب مسقوفة، لكـن عريشتك هي الوحيدة التي قُدّمت فيها شكوى ممّا دعـا إلـى إزالتها.

لماذا أحدثكم عن ذلك .. هذا ليس موضوعَنا ..

قد يظنّ الأستاذ أنور أنني ممتنع عن المشاركة في الأمسية تعاطفاً معه بعد الذي حدث.

ولمن لايعرف، فقد جهّز الأستاذ منزله بأثاث فاخر وأجّره إلى راقصة مشهورة إيجاراً سياحياً وقبض منها مبلغ مئة ألف ليرة سورية سلفاً، وذهب للإقامة عند أخته في حمص عدة شهور.

وبعد أن عاد وجد بانتظاره فاتورة هاتف بمبلغ مئة واثنين وعشرين ألف ليرة سورية. ذهب إلى الفنانة كي تسدّد له فاتورة الهاتف.. لم تفتح له.. خشي أن يكون قد أصابها مكروه سأل عنها الجيران قالوا له: سافرت منذ أسبوع ..

الأستاذ أنور رجل حكيم لايعوزه الصبر، لذلك نهر زوجته عندما بدأت بالدّعاء عليها وقال: الحمد لله.. الله يجعلها أكبر المصائب..

أمّا حماته فقد قالت : الله يجيرنا من الأعظم...

المهم.. ذهب الأستاذ إلى المخفر وطالبهم بالعثور عليها لتسديد فاتورة الهاتف، فنصحوا له برفع دعوى ... ففعل وهو يقول: عطينا عمر لنحصّل المبلغ.

الأستاذ أنور هو بيننا الآن ويمكنكم أن تسألوه عن صحّة الواقعة... المهم.. عوضك بالله يأستاذ ... أحضر صاحبنا معلّم الأقفال ليكسر له باب منزله بلطف... وبعد ساعتين فُتح الباب

المهم.. ذهبت معه إلى الشرطة .. حـضروا.. فتحـوا محضر.. قالوا : عندما نعثر عليها نتّصل بكم .

الأستاذ لم يتمالك نفسه فقال: تيتي .. تيتـي.. ضـغطت على شفتي السفلى بأسناني وهمست له: الجماعـة يعرفـونني وسيهتمّون بالأمر .. جئت لعندهم يوم العريشة، وشكوت إليهم أصوات آلات تسجيل الجيران العالية، وباص السفر الذي يسد مدخل بنايتي وشبّاكي ... ووعدوني خيراً .. لاتهتم .. بعد أيام تُحلّ مشكلتك ومشكلتي ...

الحقيقة أن قصّة الأستاذ أحزنتني، ولكنّها ليـست سـبب اعتكافي عن القص أو المشاركة في أمسية اليوم.

بما أن الأمسية قد انتهت.. أرجوكم.. أمهلـوني عـشر دقائق أخرى كي أبيّن أسباب حزني، وهو أمر يمسّكم جميعـاً ... إنه شأن عامّ ...

بعضكم سيظنّ أنني مازلت أعاني من المعقّب الذي تهجّم على محاضرتي... لا... إنّ ماحدث ليس بهذه الأهمية عندي.. ولكن صدقوني ... أنا حزين لأجله... لابدَّ أن سائقاً همجيّاً كاد يدهسه وهو في طريقة إلـــى المحاضـــرة .. أو لعلّـــه تجنّـــب حفريات المدينة وسحائب دخان الآليات، ممّـــا جعلـــه يـــصل متأخّراً ثم ينفّس عن كبته بالهجوم عليّ... فكان كمن لم يقـــدر على حماته...

إنني، في الواقع، أحبّه كما أحبّ كلّ الذين، في الخفـــاء، يتحدّثون عمّن يعمل وكأنّه عدوُّهُم...

صحيح أنني حزنت لأنّه فتح جبهةً ضدّي على غير حق، كما أنني حزنت لأنه اضـــطرّ نفـــسَه كـــي تمـــارسَ قـــسوةَ الاعتذار...

كما أرثي حال كلّ الذين مارسوا النصب باســـم الأدب.. ووقعت في فخاخهم...

ولكن هذا أيضاً ليس سبب اعتذاري عن المشاركة اليوم.

اعذروني على استسلامي لشهوة الكلام ولكنه .. مكـــره أخاك لابطل...

بعد انتظار دام عشر سنوات حظيت بهـــاتف، عفـــواً ... زوجتي تقول: كل ماحدث شيء بتروح بتخبّر العالم ... بتنشر

وهي هنا الآن لتراقبني كي لاأتحدّث عن أمها ..

لاتهتمّي ياعزيزتي .. إنني أتحدّث الآن عن مدينة تتهدم ولا أحد يأبه بها ...

المهم ... لأنّني معجب بالتقنيّة، اشتريت البارحة هاتفاً متنقّلاً ذا تقنيّات عالية، ورحت أعبث بأزراره الالكترونية مستعيناً على البرمجة بكتيّب صغير مرفق.

لن تصدّقوا ماحدث ...

بدأ يسرق المكالمات ...

لن تتصوّروا ماسمعته البارحة ...

على كل حال ساعدتني التقنيّة الحديثة على التقاطه وتسجيله.. ولكنّ الصوت الحلبي هو الوحيد الذي كان واضحاً أما الصوت الآخر فقد كان غائباً ...

استمعوا إلى ماقيل واحكموا بأنفسكم :

على طريقة حل الألغاز وتفسير النص المعمّى حاولت أن أنقل إليكم مافهمته من المكالمة :

- العملية جاهزة .

*

- جهّزنا كل شيء ...

*

– إيه .. إيه ..

*

– لأ .. لأ .. توزّعت كلَّـــهْ ...

*

– مابْهم .. الجماهير بتكفّي

*

– إيه لكان .. صوّرنا بجي ألف نسخة ووزعناهـــا ...

*

– لك ببلاش .. كل الناس أخدوا ...

*

–

*

– إيه كل العالم خوفانه ...

*

– مابطلع منّا شيء ... كل شيء مرتّب ... ايـــه ... ايه، لك القلعة والمتحف..

*

– اشلنا فيه هنّه مفلسين ...

*

- بعرف .. بعرف .. الزبدة

*

- ايه متل مااتّفقنا ... وقت الهادا ...

*

- وحدة ...... ساعتين بتكفّي وزيادة ...

*

- جاهزة ...

*

- جاهزين

*

- ايه ..

*

- لأ ... صوتك واضح .. شوية تشويش ..

*

- شهرين .. شهرين ..

*

- O. K

*

- لندن ..

*

– ألمانيا ..

*

– لك لأ .. هادا يهودي ...

*

– تمـــام

*

– محفوظة محفوظة

*

– لاتاكل هم

*

– معليش .. معليش .. الستّار ألله ...

*

[تشويش ... ثم انقطاع الخط ...]

هذه هي لب المشكلة أيها السادة ...

حملت الشريط وذهبت مهرولاً إلى الشرطة وقــد طـــار صوابي ... شرحت لهم مافهمته من تلك المكالمة..

قال أحدهم : أشّو يعني؟..

المساعد أبو أحمد قال بلهجة جادّة : لأ ياأبو صـــطيف .. الأستاذ صاحبنا .. مابتعرفه .. رايح جاي لعنّا ... العريشة ... هادا أبو العريشة .. تذكّرت ... كمان المطربة التـــي باعــت البيت وراحت ..,. وجيرانو ... والسيارات ...

بدا لي أنّه يغمز زميله ويشير إليه أن يعاملني علـــى قــد عقلي ... يعني معي خضّهْ ...

حمدت ربي عندما مدّ الضابط رأسه من الباب وغادر ..

لحقت به : سيدنا .. وحكيت له القصة وأسمعته الــشريط ...

فكّر طويلاً ثم قال: اترك لنا الشريط ونحن نتولّى الأمـــر ... تريدون الصدق.. أصابتني رعشة طويلة وقشعريرة حـــادّة ... وبدأت أرتعش من رأسي حتى قدميّ ..

– شكراً .. شكراً ... قلت له وأنا أحمل شريطي وأغادر المخفر مهرولاً ... حسبنا الله ونعم الوكيل ... حسبنا الله ونعم الوكيل ... ضاعت البلد ...

اليوم استيقظت على أذان الصبح ... بعد قليل انتفــضت ابنتي الصغيرة خائفة ... قلت لها: نامي بابا نامي ... هادا أدان الصبح ... لاتخافي ...

مرّ القطار يهدر وقد فتح أبواق التنبيه إلى أعلى حد ممكن ... أدرت التسجيل مراراً وأنا أفكّر ... وأحاول أن أربط الأمور ببعضها لحلّ اللغز ...

بعد ساعات ...

فكّرت : نعم ... نعم .... الجماهير

وضعت نظارات غليظة وأنا أتجنب النظر إلى السماء ... كانت الساعة العاشرة تقريباً... هرعت إلى الجريدة ... سلمت على الأستاذ محمد الراشد واستأذنت رئيس التحرير أن يأمر الأرشيف بأن يبحثوا لي عن الخبر الذي نشر عن الكسوف منذ شهر تقريباً ...

جلبوا لي كُوَماً من الجرائد لم أستفد منها لأنني أبحث عن قصاصة أصغر تمّ تصويرها وبيعت في الشوارع أوّل الأمر.. ثم وزّعت مجاناً ...

بعد ثلاثة أرباع ساعة وجدتها ...

هاهو التحذير الذي أُطلق عبر الجماهير نُشر يوم الأربعاء في 1999/6/23.

الخبر العريض يقول: حدوث كسوف في سورية في 11 آب القادم .. (أي اليوم) .. إيقاف العمل ومنع التجوّل أثناء فترة الكسوف ...

الخبر يحدّد أن مدة الكسوف تتجاوز ساعتين ... ومن ينظر إلى الشمس أثناء فترة الكسوف يصاب بأذيّات دائمة في العينين تصعب معالجتُها.

ونظراً لخطورة الأمر تتقدم الجمعية إلى مجلسكم الموقر بمجموعة من الاقتراحات ...

لاحظت أن اسم المجلس غير موضّح كما أن الجمعية لم تذكر اسمها ... جمعية الفلك... جمعية الرأفة بالعينين ... جمعية العاديات ... الأمر غامض ...

ويطالب هذا الاقتراح الناس بأن يلزموا بيوتهم ويسدلوا الستائر ويغلقوا الأباجورات ...

كما يطالب باستنفار المستشفيات والمستوصفات لاستقبال الإصابات التي (قد) يستطيع الأطباء التخفيف من بعضها ...

لاحظت أيضاً هذه الجملة التي تنبئ بكارثة (قد) يستطيع الأطباء (التخفيف) من (بعضها)... كما يطالب الاقتراح بوقف حركة وسائط النقل داخل وخارج المدن أثناء الكسوف، ومنع التجوّل، واطلاق صافرات الإنذار عند بدء الكسوف وعند انتهائه.

إيقاف العمل من الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، وتمتد الفترة الحرجة بين الساعة الواحدة والرابعة والنصف بعد الظهر.

نظرت في الساعة ... الحادية عشرة ... عدت إلى البيت سريعاً ...

أعدت سماع التسجيل : الجماهير بتكفّي ... صوّرنا ألف نسخة ووزّعناها .. الواحدة ... القلعة ... المتحف ... ليون ... لندن ... ألمانيا ..

يأالله ... الأمر بدا واضحاً لي أيّها السادة ...

هذا هو بالضبط ماأذهلني ... عصابة دوليّة تساعدها دول استعمارية وعناصر محلية من أجل سرقة المتحف والقلعة ... عصابة تستغل الخبر الذي يخيف من الكسوف ويمنع التجوّل، فتوقّت ساعة الصفر بما يتوافق والفتـرة التـي تكـون فيهـا الشوارع خالية لهم ...

فكّرت أيها السادة وأنا ألهث بذهول هائـل .. تـسارعت ضربات قلبي ... ماذا أفعل ... أصوات طائرات تهدر فـوق منزلي ... هل سينقلون القلعة بالطائرات .. ؟ ..

هل سينقلون الآثار من المتحف ؟..

ماالذي سوف يحدث ...

حاولت الاتّصال بالمتحف ... هاتفي لاحـرارة فيـه ... لاحول ولا قوة إلاّ بالله .

أسرعت إلى جمعيّة العاديّات ... لاأحد ... اتّصلت مـن هاتف براق بالأستاذ محمد رئيس جمعية العاديات.. أخذت منه

الساعة الثانية عشرة والنصف توجّهت إلى المتحــف ... الطريق إليه مغلق بدراجات شرطة المرور . عبــرت ســاحة سعد الله الجابري باتّجاه السبع بحرات عبر العزيزية ..

السبع بحرات طريقها مغلق ... طريق باب النصر مغلق ...

الطائرات تحوم فوق المدينة... فقــط شــاحنات كبيــرة وسيارات سوداء حديثة يسمح لها بالمرور باتجاه القلعة.

نبّهني خَواءُ الشوارع إلى بدء الكسوف، ولم يكن أمــامي سوى الشرب من نهر الجنون ...

في منزلي جلست أراقب احتفاء الناس بهــذه الظــاهرة الطبيعية.

في الثالثة، وكالعصافير داعب أجفــاني خِــدر هــادئ، فاستسلمت إلى غفوةٍ فرضها غروب باهت مباغت...

في الرابع والنصف أدركت أنّني في المدينة التي أُحِبّ.. هادئة.. صافية.. بلا دخان ولا سيارات ولا أصوات... كم تبدو الحياة جميلة بلا زعيق الباعة وصراخ السرافيس... دائــري..

توجهت إلى القلعة مروراً بالمتحف ...

حول المتحف انتشر بضعة جنود بعتاد حربـــيّ مميّـــز، أشار أحدهم لي أن أنتقل للرصيف الآخـــر بمـــوازاة حديقـــة عبدالناصر...

حركة المرور كانت بطيئة ... والناس على غير العـــادة قلائل ...

مررت بجانب البنك المركزي ... بدأت تستعيد حركـــة الناس عافيتها هناك ... السبع بحرات... طريق الجامع الكبيـــر مغلق، وهذه المرّة بسيّارات شرطة المرور وبدراجات ناريّـــة وعربات إطفاء وسيّارات نجدة ... دُهشت من تكثيـــف منـــع المرور في تلك المنطقة ... بدأت أشعر بالإرهاق وأنا أتّجه إلى القلعة من طريق السجن القديم... في منتصف الشارع وجـــدت آليات محمّلة بالجنود الذين يقمعون المرور بحزم ...

لاشك أنّ شيئاً ما قد حدث أثنـــاء الكـــسوف... تـــأتيني أصوات مشوّشة غائمة وصور باهتة :

مطربة تقول : أين سيقام مهرجان الأغنية هذا العام ؟

مقهور يقول: أين أذهب الآن للتأمل كي أستمدّ قوّتي من شيء نرفع رؤوسنا كي نراه... ونرفع رؤوسنا حين نراه .

حارس يهذي: أين أحرس بعد الآن ... وماذا أحرس ؟..

دليل سياحي يسأل: إلى أين سنأخذ السوّاح بعد اليوم ؟ ...

عدت أدراجي وأنا منهك من يوم متعِب... غزاني اليأس والحزن ولم أعد أقوى على الأمل بأيّ مقاومة...

ولهذا قرّرت أن أعتذر لكم عن المشاركة بأمسية اليوم، ولعلّنا نخرج الآن معاً... لنستطلع ماالذي حدث للقلعة والمتحف...

إنّها فرصتنا الوحيدة أيّها الأصدقاء ...

شكراً لإصغائكم

تصريحات مجنون

في زيارتي الأخيرة لمشفى الأمراض العقلية، تقدّم إلـيّ أحد النزلاء قائلاً:

يا أخ.. في وجهك سمات تبشّر بالخير وتدلّ على مـدى أناتك وصبرك. تأمّل الرجل ظفر إبهامه برهة ثم تابع القـول: هل لديك القدرة على أن تكون صريحاً.. لابأس.. أفهم صمتك وافتعال المجاملة حين تكون في مواجهة العالم الخارجي.. عالم العقلاء الذين لديهم القدرة على إيذائك وهـم يبتـسمون فـي وجهك. اليوم الخميس.. وهذا شهر كانون الثاني الذي عانى فيه الموظفون كثيراً بسبب مصروفات العيد.. ولكـنهم يتوهمـون السرور لأن شباط /28/ يوما فقط هذا العام.. إنه شهر قصير الذيل، ويوفر مصروفات أربعة أيام.

نظر إليّ بهدوء وقال بصوت مـنخفض: ألـيس ماقلتـه صحيحاً ؟

قلت: بلى. قال: يعني عرفت العام والشهر واليوم، فهـل أنا مجنون؟

أجبته وأنا أبتلع لعابي: بل إنك أكثر من عاقل، ولكـن.. قل لي ماذا تعرف عن الزمان؟

قال بسرعة: نعيب زماننا والعيب فينا. وفجأة علا صوته وهو يسألني: كن صادقاً: هل أنا مجنون؟ إنني عاقل.. ولكن وجودي هنا يوفر عملاً للأطباء لذلك لايخرجونني... أريد أن أسألك سؤالاً : من الذي قص ذيل شباط حتى غدا قصيراً؟ ولم ينتظر الإجابة بل أردف سؤاله بسؤال آخر: هل تعرف معنى نابليون...

إنه ناب الفهد، لكنهم لم يشاؤوا أن يترجموه كي لاينكشف أمرهم ولا تظهر مقاصدهم في نهش جسد أمتنا. ياأخي الترجمة تسبب لهم مشكلة، خذ مثلاً بوش .. يعني فاضي.. يعني الفوارغ.. أي مايجب أن نرميه.. ولكننا نستقبله ونقيم له الولائم ونعوّل عليه في حل مشكلاتنا.

الحق أن الرجل أربكني ولم يترك لي فرصة للكلام، بل تابع حديثاً متتابعاً لم أستطع التركيز إلاّ على بعضه، ولكنني سمعته يقول: أتعرف المعري؟.. أنا أكثر منه تشدداً.. هو لايأكل اللحوم.. ولكنني لاآكل اللحوم ولا أجني على كثير من الفاكهة.. التفاح الأحمر يذكّرني بالخدود.. الكرز يشبه الـ... والدراق أيضاً.. تعرف ماذا يشبه.. كيف أتدنّى للوحشية وألتهم مايجب أن نبقيه للتأمل. صمت برهة.. أخرج زجاجة من جيبه.. سكب لي ملعقة من شيء يشبه الشاي وقال: اشرب.. هذه ملعقة ويسكي.. الوسكي يقوّي القلب.. سمِّ بالله وخذ غبّة

تربّع على الأرض وقال: اقعد أستاذ اقعد.. وأجبني بصراحة: هل في كلامي مايدلّ على أنني مجنون؟

قلت له وأنا أتوجّس: يعني.. يوجد شيء من هذا.

قال: هاا.. أنا مجنون وأحكي (شندي بندي) ومن المعلوم أن المجنون لايؤاخذ.. مجنون رسمي.. خذ مني وارمِ بالبحر: بعض الحكومات تخاف من الخوض في الحديث عن الديمقراطية والحرية والعلمانية والمجتمع المدني... بل تخاف من الحديث عن الفساد المنتشر فيها. وفي الحقيقة، هذه الحكومات لاتعرف ألفباء السياسة.. الدول العظمى تترك للناس حرية القول كي تمنع الانفجار. الإسكات يؤدي إلى الهمس وإلى تشكيل بؤر تناهض الحكومة، بينما الإباحة تمارس فعل التنفيس فيكتفي الناس بإفراغ شحناتهم الانفعالية بالقول ولا يمتد ذلك إلى الفعل.

إذا كنت سياسياً ناجحاً فهذا يعني أنك تفعل ماتريده أنت وتجعل الآخرين يظنّون أنك تستجيب لكل مطاليبهم.

نظر الرجل في وجهي برهة وهو يتأمل ملامحي ثم قال: ولكن.. مع من أتكلم ؟.. عاقل يحكي ومجنون يسمع .

المحتوى

القصة	الصفحة
كل يوم	7
تداعيات يوم في مقهى الموعد	11
ثلاثة أيام في حياة مي	15
فشّة خلق	18
الحفلة	25
انعتاق	31
ضفة واحدة ومبدعان	36
برج الصمت	43
الممسوس	46
شكراً لهذا الحب	49
المسألة مسألة وقت	54
عندما تكون كاتباً	68
مكاشفة	76
شيء يشبه الدائرة .. شيء يشبه الزكام	82
تحوّلات فينوس	93
إعلان مؤجّل	101
يعيش العرب .. تسقط أميركا............	119
اعتذار	126
تصريحات مجنون	138

تعريف فكري

السيرة الفكرية : محمد جمال طحان

* دكتوراه في الفلسفة

*عضو اتحاد الكتاب العرب- عضو اتحاد الصحفيين.

*عمل في دائرة مديرية صحة حلب ومحللاً نفسياً في مشفى الأمراض العقلية (1980-1982)، ثم في دائرة التحقق بمديرية مالية حلب(1983-1986) ، ثم مدرساً في ثانويات حلب ومعاهدها وجامعتها(1986-1990).تفرغ فترة للأعمال الحرة ومتابعة الدراسات العليا (1991- 1999)

*عمل محرراً في القسم الثقافي بجريدة الجماهير بحلب (2000-2006) ومشرفاً على صفحة "قضايا فكرية وأعلام" فيها.

*مدير تحرير مجلة(العاديات)-منذ تأسيسها عام 2004 حتى 2008.

*عضو مجلس إدارة وأمين سر ثم رئيس لجان الثقافة والمعلوماتية والإعلام في جمعية العاديات والمشرف العام على موقع الانترنت في الجمعية (2003- 2008).

*مدير المركز الإعلامي لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية2006.

*محرر في صحيفة تشرين (مكتب حلب) - مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر(2007- وما يزال .

* يسعى لإنجاز مجموعة من الأبحاث حول الفكر العربي المعاصر.

* ألقى العديد من المحاضرات وشارك في بعض الندوات الفكرية حول مسائل معاصرة في عدد من الدول العربية والإسلامية .

* نشر له ما ينيف عن ألف مادة بين الدراسة والنقد والقصة والشعر في الدوريات العربية المختلفة.

*مشرف على منتديات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية في مواقع كثيرة.

* أعدّ بعض البرامج الثقافية في إذاعة صوت الشعب من دمشق.

* نال بعض الجوائز المحلية والعربية، منها:

- جائزة الباسل التي تمنحها رئاسة مجلس مدينة حلب عن مجمل الأعمال (عام 2000).

- الجائزة الأولى في الشعر في مسابقة محافظة حلب (عام 2000).

- الجائزة الثانية عن السيرة القصصية في مسابقة ثقافة الطفل العربي (أبو ظبي) (عام2000).

للمؤلّف

رقم	اسم الكتاب	نوع العمل	الناشر	عام
1	عشرة زمن يا آه	شعر	دار الثقافة (دمشق) **نفد**	1985
2	الاستبداد وبدائله في فكرالكواكبي	دراسة	اتحاد الكتاب العرب (دمشق) **نفد**	1992
3	مشاغبات فكرية	مقالات	دار سراج (بيروت) **نفد**	1994
4	الأعمال الكاملة للكواكبي	دراسة وتحقيق	مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) **نفد**	1995
5	على هامش التجديد (من الكلامولوجيا إلى التكنولوجيا)	دراسة	دار سراج (بيروت) **نفد**	1996
6	هكذا تكلمت حورية	مقالات	دار سراج (بيروت) **نفد**	1997
7	شرفات للجمر	شعر(بالاشتراك)	دار المرساة (اللاذقية) **نفد**	1998
8	صرخة الأسيان/ إضاءة كواكبيّة	دراسة	دار سراج (بيروت) **نفد**	1999
9	الحاضر غائباً (تأملات في الزمان)	مقولة	دار بترا (دمشق)	2000
10	أفكار غيّرت العالم	دراسة	دار الأوائل (دمشق) **نفد**	2001
11	أبو الضعفاء (عبدالرحمن الكواكبي)	سيرة قصصية	أبو ظبي **نفد**	2001
12	اليهود والأوهام الصهيونية	دراسة	المكتبة الحقوقية (بيروت) **نفد**	2002
13	المثقّف وديمقراطية العبيد	أبحاث	دار الأوائل - (دمشق) **نفد**	2002
14	أم القرى	دراسة وتحقيق	دار الأوائل / **نفد**	2002
15	الرحالة ك طبائع الاستبداد	دراسة وتحقيق	دار الأوائل - (دمشق) **نفد**	2003

16	الخديعة الكبرى	دراسة	دار الأوائل - (دمشق) **نفد**	2003
17	امنحوني فرصة للكلام	مقالات	دار الأوائل - (دمشق)	2003
18	تيار الإصلاح الديني ومصائره	دراسة(بالاشتراك)	المعهد الفرنسي للشرق الأدنى	2003
19	قراءات في الفكر العربي	دراسة(بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية(بيروت)	2004
20	الشجرة المثمرة العالية	تحرير	دار بترا (دمشق) **نفد**	2004
21	الاستبداد في الوطن العربي	دراسة(بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية(بيروت)	2005
22	عودة الكواكبي	دراسة	حلب عاصمة الثقافة الإسلامية **نفد**	2006
23	الاستبداد وبدائله في الفكر العربي	دراسة	دار النهج(حلب)	2006
24	الرؤى الإصلاحية عند الكواكبي	تحرير	اتحاد الكتاب العرب(دمشق)	2007
25	الأعمال الكاملة للكواكبي	دراسة وتحقيق	مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) **طبعة ثالثة**	2007
26	المثقِّف وديمقراطية العبيد	أبحاث	دار صفحات (دمشق) **طبعة ثانية**	2007
27	أم القرى	دراسة وتحقيق	دار صفحات (دمشق) **طبعة ثانية**	2007
28	الرحالة ك طبائع الاستبداد	دراسة وتحقيق	دار صفحات (دمشق) **طبعة ثانية**	2007
29	الخديعة الكبرى	دراسة	دار صفحات (دمشق) **طبعة ثانية**	2007
30	الصورة الفنية في الشعر العربي	تقديم	دار صفحات (دمشق)	2008

31	**حالات سريّة**	مجموعة قصصية	وزارة الثقافة السورية (دمشق)	2008

عنوان المؤلف:

E:j-tahhan@scs-net.org

هاتف2276085-ناسوخ2284441/-حلب21-سورية00963

00963944904738محمول

الرحلة مع هذه المجموعة القصصية ممتعة ومرهقة في آن معاً. القاص يأخذ بيدك عبر قصصه الرقيقة المتدفقة... لتكتشف أولاً أنك تنصت إلى «ذاتك» تتحدث، بكل ما توحي به هذه المفردة من معانٍ وأخيلة وحصيلة تراثية...

قصص تقدّم إيحاءات فيها الصفاء وفيها الطهر وفيها النقاء والبياض بلا شائبة... وتطرح رؤيا شخصية في موضوعات فكرية واجتماعية وأدبية.

وعلى الرغم من سعة المسرح الذي أُخذت منه المادة الفكرية لهذه القصص، فإن خيطاً دقيقاً يربط ذلك جميعاً.

نلمح في هذه المجموعة هموم المواطن العاشق لبلده، وهو يشير إلى هذه الهموم في ميادين اجتماعيةٍ وأدبيةٍ وإعلاميةٍ وفكريةٍ.

في القصص وقفات فكرية هادئة عميقة تتناول قضايا ساخنة، بسلوب لا يخلو من سخرية مرّة، ونقد لاذع.

تسع عشرة قصة نجد فيها القاص، يقترب أكثر من رؤيا فكرية خاصة متميّزة متبلورة وقد قطعت شوطاً طويلاً في رحلة الفكر والأدب... رحل تنضجها الأيام ويصقلها الدأب وتغذيها خبرة تُبنى بثقة وإصرار وتفاؤل.

مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب

٢٠٠٨

سعر النسخة داخل القطر ٧٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ١٥٠ ل.س

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story